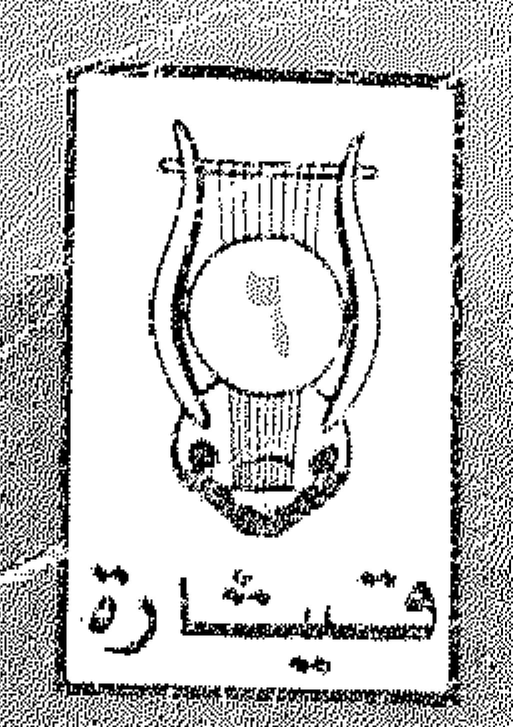


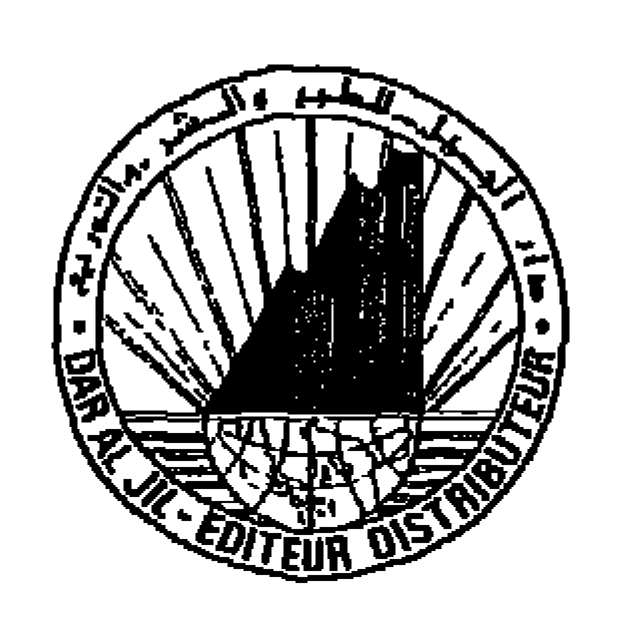
روايات الجيل الرومانسية



تأليف
مجدي صابر

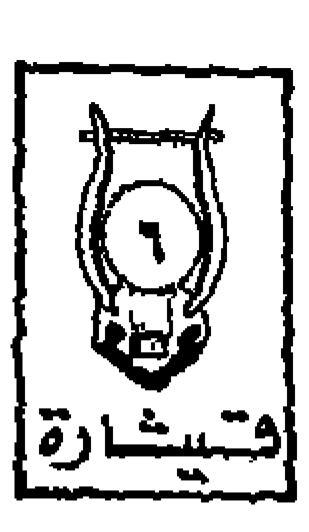
لحن الوفاء

الطبعة الأولى
١٩٩٢



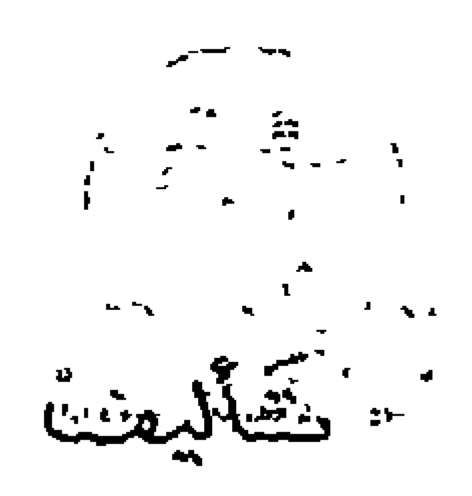
دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب ٨٧٣٧ - برقياً : دار جيلاب - تلكس : ٤٢٦٤١ دار جيل

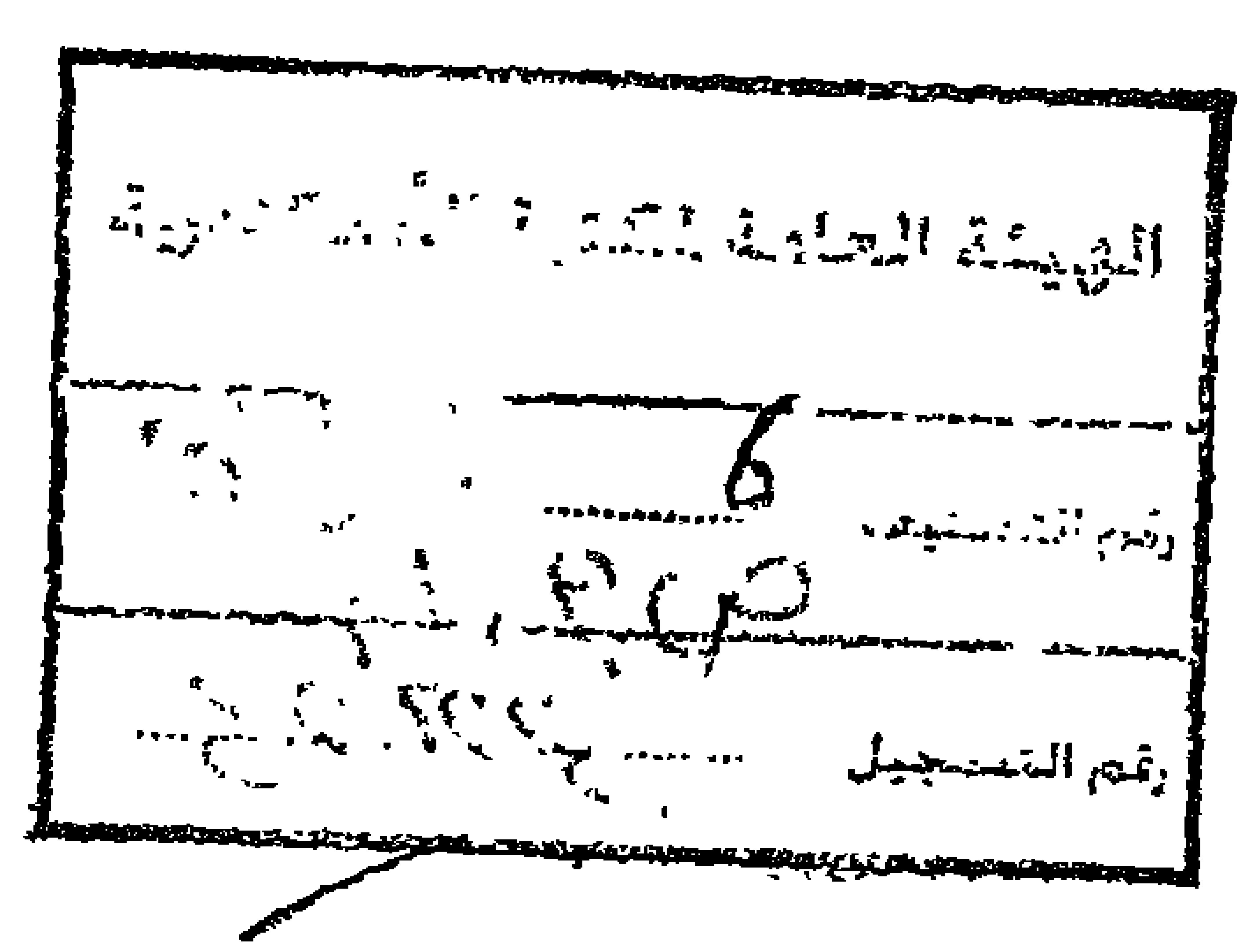


روايات الجيل الرومانسيّة ٦

لحن الوفاء

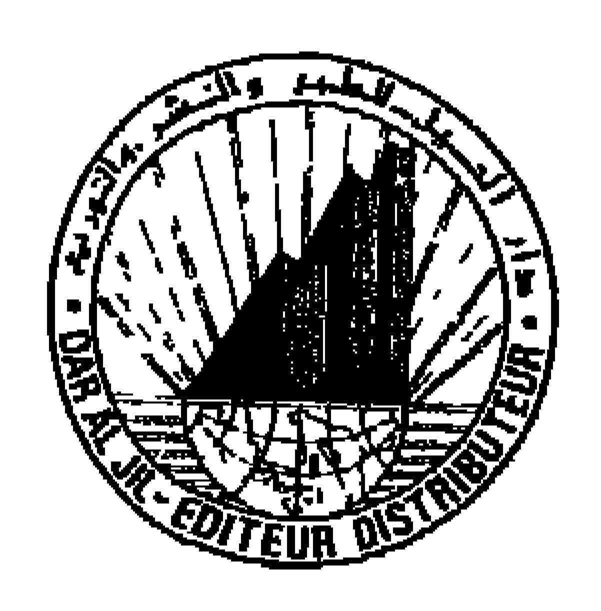


تأليف
مجدي صابر



دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩١



دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب ٨٧٣٧ - برقياً : دار جيلاب - تلكس : ٤٢٦٤١ دار جيل

« مدينة بلا قلب »

ألقى سامح نظرة أخيرة على المنزل الصغير ذي الشرفات الممتلئة بأصص الزهور، والحديقة اليانعة .. والذي قضى فيه سبع سنوات كاملة .. في قلب « باريس » العامرة بالحياة والفن والجمال. توقفت سيارة التاكسي التي طلبها بالتليفون أمام بوابة المنزل تماماً .. فاستدار سامح بقامته الطويلة وبذلته الأنيقة ليلوِّح إلى مدام « مارسو » صاحبة المنزل، فلوَّحت له بيدها في وداع أخير، ثم أغلقت النافذة عائدة إلى الداخل لتمارس شئونها .. كأنها ما ودعت منذ لحظات شخصاً قد اعتادت أن تراه سبع سنوات كاملة .. وأن تدعوه أحياناً بـ « ولدي العزيز ».

وابتسم سامح دون حزن .. فقد علمته السنوات الفائتة أن هناك قوماً يتعاملون بلغة الشيكات والمصالح .. لا لغة العواطف والقلوب.

وضع حقيبة ملابسه الصغيرة بجواره داخل السيارة، التي انطلقت تشق قلب « باريس » المتلألئ بالأضواء، كأنه سماء رصّعت بالنجوم. نجوم تخطف القلوب والأبصار، ولكنها ذات أضواء باردة .. تُبهر العيون ولا تحرك الشجون.

وظهر لعينيه برج « ايفل » وقامته تناطح السحاب، فيبدو أمامه البرج العملاق كعمل غبي لا معنى له .. وربما كان التوافق الوحيد بينه وبين قلوب أهل تلك المدينة .. هو أن كليهما قد صنع من المعدن.

مرت السيارة بمحاذاة نهر السين بعد أن عبرت ضفته .. والأضواء المنعكسة فوق صفحة النهر تبدو كما لو كانت ومضات نجوم تغتسل في مياه النهر بعد طول سفر. وعلى الجانبين كان شاطئا النهر عامرَيْن بالحياة .. برغم الوقت المتأخر.

سمعهم قديما يقولون أن « باريس » هي مدينة الحب .. وها هم فتياتها وشبانها قد جلسوا أو ساروا وقد شبك كل شاب ذراعه في يد فتاته .. في مشية متباطئة متهادية لا يُعكرها عين رقيب أو لومة لائم .. والعيون تبدو حالمةً والأرواح محلقةً في دنيا أخرى أكثر شاعرية وصفاء.

ولكن سبع سنوات من الاغتراب كانت كافية لسامح لأن يتعلم أن كل ما يراه مجرد قشرة توحي بمظهر غير حقيقي .. وأن قلب « باريس » بارد كالصقيع.

« باريس » مدينة لا تعرف الحب .. وما هؤلاء العشاق غير بشر يحاولون أن يغيروا طبيعة مدينتهم ويعيشوا الحب ولكنهم يفشلون في ذلك، لأن قلوبهم تحولت إلى قطعة من اللحم لا تشعر ولا تحس .. وتنبض بانتظام فقط من أجل استمرار الحياة.

وتذكَّر « جوليا » على الفور .. « جوليا » التي كانت أول حب له في باريس .. « جوليا » الفاتنة الجمال مثل « فينوس ». رآها لأول مرة بعد أيام قليلة من وصوله « باريس ». كانت جالسة وحيدة في نفس المكان بجوار ضفة نهر السين.

سحره جمالها وتكوينها الملائكي .. لم يقاوم منظرها البديع وهي جالسة ترنو إلى النهر كأنها تناجيه.

وكان التعارف بأسرع مما قدَّر .. وحسب نفسه محظوظاً وهي تعطيه ميعاداً في المساء ..

وتعددت لقاءاتهما .. وجابا « باريس » كلها من أقصاها لأقصاها ..

كانت مثل « سندريللا » .. وحسب نفسه أمير أحلامها وفارس قلعتها.

ظن أنه انتقل إلى الجنة عندما خطا إلى حياة « جوليا ».

لم يعد في قلبه غيرها .. ولا في أحلامه سواها ..

أحس أنه أصبح غير قادر على أن يعيش لحظة واحدة دون أن يراها ويشبك ذراعه بذراعها.

وقال لها بعد أن قتله الشوق إليها : أحبك .. أحبك .. أحبك.

فضحكت كتغريد عصفور منتشٍ وقالت له في صوت لعوب : لا تكن ساذجاً.

واندهش .. هل الحب سذاجة ؟

ثم قال لها في صدق : أريد أن نتزوج .. لم أعد أتحمل ابتعادك عني .

فرمقته بدهشة وعجب .. وتساءلت : نتزوج .. ولماذا ؟

فسألها في دهشة أكبر : ما مصير حبنا إذا لم نتزوج ؟

فاستنكرت قائلة : حبنا .. من قال أنني أحبك ؟

ووقتها أدرك الحقيقة .. كان بالنسبة لها مجرد شاب تمضي معه أوقات فراغها .. أدرك أن قلبها لم يخفق باسمه قط. كان قلبها مثل قطار، يتوقف في كل محطة قليلاً ثم يعاود الرحيل، دون أن يستوقفه حب أو حنين في محطة خاصة.

وكان هو احدى هذه المحطات التي توقف قطارها عنده قليلاً. لم تكن هي « سندريللا »، ولا كان هو فارس قلعتها .. فقد تهاوت كل القلاع منذ زمن، وسقطت رايات كل الحصون في تلك البلاد.

وبعد أيام شاهدها بصحبة شاب آخر .. بملامح شديدة السمار وشعر أكرت ووجه منتفخ مكسو بالغباء والبدائية ..

وأدرك أن الحب بالنسبة لجوليا هو وجبة طعام .. الغذاء غير العشاء. وانه بالنسبة لها كان مجرد طعام جديد مجهول قادم من الشرق .. كان فضولها فقط هو الذي يدفعها إليه.

الفضول والملل.

وأدرك لحظتها أن ما كان يبحث عنه غير موجود في هذا المكان .. فلا وجود للحب في « باريس ».

وتأكد له ذلك بفتيات كثيرات تعرف عليهن في نفس

المدينة الساحرة .. فتيات بطول أوروبا وعرضها.

وعرف أن الحب الحقيقي قد مات في تلك البلاد .. وأن قلوب أهلها تحولت إلى معدة ذات أسنان تطحن كل تجربة جديدة وتتذوقها بعض الوقت، ثم تلفظها بحثاً عن طعام جديد.

ومن وقتها مات قلبه في باريس النابضة بالحياة .. وعاش من أجل عمله، ولأجل المال فقط.

راقب زخات المطر المتساقطة فوق الشوارع والبنايات لتغسلها، فتبدو أجمل وأنصع. والأطفال الصغار المتقافزون تحت المطر والسائرون قد رفعوا مظلاتهم، ووجوههم لا تزال ترسل البهجة والسرور.

ـــ لقد وصلنا إلى المطار يا سيدي.

أفاق سامح على صوت سائق السيارة المهذب. وغادر السيارة ممسكاً بحقيبته الوحيدة الصغيرة ونقد السائق أجرته. كان قد ترك خلفه ملابس كثيرة لم تكن له حاجة بها. أراد أن يعود كما جاء إلى تلك البلاد بحقيبة صغيرة وحيدة.

كان الاختلاف الوحيد هو أنه أصبح يمتلك ثلاثة ملايين فرنكاً انتهت بها رحلته التي بدأها، وليس في حقيبته غير

خمسين فرنكاً يتيمة. وخلالها مارس أعمالاً كثيرة ومهناً عديدة، بدءاً من غسل الصحون في مطاعم « مرسيليا » و « نيس »، حتى تجارة الخضروات والفاكهة بالجملة في أسواق باريس.

تطلّع ضابط الجوازات إلى سامح ثم تأمل صورة جواز سفره. الوجه القوي الوسيم الذي يشي برجولة فائقة. والشارب الأسود الممتلئ، والشعر المصفف بعناية وقد بدأ الشيب يغزو مفرقيه.

وأعاد الضابط جواز السفر إلى سامح قائلاً : رحلة سعيدة يا سيدي.

أخذ سامح مكانه بجوار النافذة في قلب الطائرة.

وجاء صوت المضيفة تطلب ربط الأحزمة ..

ثم اقلعت الطائرة.

كانت المرة الثانية التي يركب فيها طائرة. والمرة الأولى يوم أن جاء إلى « باريس » لأول مرة في حياته، يخطو نحو المجهول.

جاء لا يملك غير قلب كسير وأحلام مشوشة مضطربة وفرنكات قليلة، ولغة لم يستعملها منذ زمن المدرسة الثانوية.

لم يتخيل يوماً أنه سيهرب من بلده لكي ينسى قصة حب .. أضاع فيها خمس سنوات من عمره.

مديحة .. التي رآها لأول مرة في حياته يوم أن خطا إلى كلية « الآداب » في أول يوم له بالجامعة.

جذبته إليها بانطلاقتها وابتسامتها المرحة .. باناقتها وجمالها. وتعرف إليها. وصارت الصداقة حباً مع الايام. صارا لا يفترقان. أصبح حبهما مضرب المثل بين الاصدقاء والمعارف. تعارف مع أهلها وأبيها الطيب صاحب محل البقالة المتواضع في « سن الفيل »، والذي يبذل أقصى جهده من أجل أن يربح جنيهات قليلة تكفي مطالب أسرته الكثيرة العدد.

ذات يوم سألها قبل أن يتخرجا من الجامعة بأيام :

ـــ مديحة .. ماذا سيكون مصير حبنا بعد التخرج ؟

فأجابته : الزواج طبعاً .. هذا ما اتفقنا عليه منذ اللحظة الأولى.

ـــ هل ستنتظرينني إلى أن أنتهي من فترة التجنيد ثم البحث عن وظيفة ؟

ـــ سأنتظرك العمر كله إن شئت.

ولكنها لم تنتظره على الاطلاق .. أدهشه مللها المفاجئ وأحلامها العريضة. ملل لم يعتَده منها أبداً، وأحلام كان من المستحيل عليه تحقيقها .. أحلام قفزت إلى عقلها بعد أن انتهت الدراسة الجامعية.

وفاجأته ذات يوم قائلة : هل تظن أننا سنستطيع تحقيق أحلامنا ؟

فأجابها : أحلامنا كانت أن نكون معاً .. كان هذا هو حلمنا الوحيد.

ــ ولكن هذا الحلم بحاجة إلى واقع لتحقيقه .. بحاجة إلى مسكن وإيراد وأشياء أخرى كثيرة.

قال لها : تعاهدنا من قبل أن نحقق أحلامنا خطوة بخطوة. فلا شيء مستحيل أمام الحب.

أجابته : الحب وحده لا يكفي، والعمر لا يحتمل الانتظار.

صدمته عبارتها ..

ثم أذهله أن أعادت إليه دبلته الفضية في اليوم التالي.

وأدماه أن دعته إلى حفل خطوبتها .. بعدها بأسبوع.

وتزوجت مديحة من تاجر ثري .. مؤهلاته سلسلة من

المطاعم الفاخرة منتشرة في كل أحياء العاصمة، ورصيد في البنك يصل إلى الملايين، وعمر تعدى الخمسين، وتجارة سرية في بيع السلاح لكل الاطراف المتحاربة في « لبنان » والوطن .. الأم.

تزوجت مديحة المال الكثير الملوَّث بدماء الضحايا الأبرياء.

ولحظتها أدرك أنها لم تكن تحبه .. فمن يحب لا يتزوج المال أبداً.

وأراد أن يهرب من العالم كله .. كره كل ما حوله لأنه كان يذكّره بالخديعة والغدر .. لم يعد يؤمن بالحب أبداً ..

ورحل إلى « باريس » .. وأراد أن ينسى مديحة بقصة حب جديدة. ولكن « جوليا » أكدت له أن الغرب كالشرق. أصبح الحب بالنسبة لهما ذكرى ماضية.

ففي الشرق الجمال يتزوج المال دون حب. وفي الغرب الجمال بلا ثمن، والحب وجبة طعام. وفي الحالتين ليس هناك حب حقيقي .. ليس هناك اخلاص ووفاء.

وتأكد له لحظتها أنه لم يحب « جوليا » .. كان فقط

يريد أن ينسى حبه لمديحة بتوهمه حب جديد.

وأعادته « جوليا » إلى أرض الواقع .. فأغلق قلبه إلى الأبد.

لقد رحل بقلب ينزف .. وعاد بقلب يكسوه الجليد ونتوءات جراح ملتئمة لا تزال اثارها واضحة. نسي مديحة .. وجوليا .. وغيرهما.

لم يعد في ذاكرته غير الملايين الثلاثة التي عاد بها. وكيف سيبدأ بها حياة أخرى في بلده. بلا قلب .. بلا مشاعر.

وجاء صوت المضيفة في الميكروفون الداخلي يقول : على المسافرين ربط الأحزمة .. نحن نستعد للهبوط في مطار « بيروت » .. حمداً لله على السلامة.

ألقى سامح نظرة من نافذة الطائرة إلى مدينته الحبيبة وضوء الفجر الوليد يسكب عليها أنهاراً من الفضة تغسل جبالها وأشجارها ووديانها.

وآلمه أن قلبه لم يكن به إشتياق .. حتى لبيروت.

« صديق مخلص »

احتضن ممدوح صديقه سامح في سعادة بالغة .. وهتف يقول له وهو يتأمله : لقد تغيّرت كثيراً .. يخّيل اليّ أنك إزددت طولاً .. ووسامة.

وأضاف ضاحكاً وهو يغمز بعينيه : لك حق .. فقد كنت تعيش في « باريس » عاصمة الجمال والحُسن.

ــ سامح، طالما تمنيت أن تسافر إلى « باريس » .. فهناك العمل والمال والحياة.

قال ممدوح بلهجة تشوبها رائحة حزن : يا صديقي كيف كان باستطاعتي أن أترك أهلي وأسرتي في مثل الظروف التي كنا نعيشها.

تذكر سامح .. انفجارات القنابل وتراشق الرصاص والقذائف الهائمة في سماء بيروت بلا هدف سوى الخراب،

كأنها رسول موت أعمى لا اختيار له ولا تمييز.

كثيرون ماتوا بين الأنقاض لأنه لم يكن لهم مكان آخر. وكثيرون ماتوا دون أن يدري من قتلهم ولماذا قتلوهم. وكثيرون آثروا السفر والرحيل بعد أن صارت « بيروت » غريبة عنهم. ولم يكن لسامح ما يغريه بالبقاء في بلده، بعد وفاة أبيه بأيام قليلة قبل سفره.

إلتفت سامح إلى صديقه متسائلاً والسيارة تشق طريقها إلى الجبل : وكيف الحال الآن ؟

ـــ الحياة الطبيعية تعود تدريجيا إلى « بيروت »، بعد أن غادرها المسلحون، ونتمنى أن يسود السلام والهدوء كل أرجاء « لبنان » .. وأنت .. ما هي خططك ؟

أجاب سامح متنهداً : لا أدري حتى الآن .. ولكن من المؤكد أنني سأبدأ مشروعاً تجارياً صغيراً .. شركة استيراد وتصدير مثلاً.

وصمت وهو يراقب البنايات المدمرة التي قتلتها طلقات الرصاص، وانتزعت القذائف أحشاءها، والخرائب المحتشدة في كل مكان، وبقايا سيارات معجونة بالموت ورائحة البارود.

أخذت السيارة وجهتها صاعدة طريق الجبل وقال ممدوح : اضطررنا للجوء إلى الجبل وسكناه لنحتمي من القتال .. ولكن هذا لم يمنع وصول بعض القذائف الطائشة إلينا.

تساءل سامح : ومنزل والدي ؟

ممدوح: لا أظنه سيصلح للإقامة فيه حالياً .. فقد هدمته القذائف تماماً ويحتاج إعادة بنائه إلى وقت ومال. وأرجو أن يعجبك المنزل الذي استأجرته لك فوق في الجبل بجوار بيتنا هناك.

راقب سامح طريق الجبل الصاعد المتلوي في صمت. وقد تناثرت على البعد أشجار الأرز والصنوبر والروابي الخضراء ورائحة الورود المتفتحة للحياة.

راقب ممدوح صديقه في صمت واحترم سكونه. يعرف أن الغربة مؤلمة. ولكن أدهشه ذلك القناع الخالي من المشاعر الذي يكسو وجه صديقه. بل إنه حتى لم يسأله عن أسرته. ترى ألا تزال ذاكرته وقلبه يحتفظان بذكرى خيانة مديحة ؟

وضغط على زر جهاز التسجيل في سيارته، فانطلق صوت

حزين مُفعم بالشجن والأسى لمطربة تشدو من شريط الكاسيت.

تنبّه سامح من شروده على الكلمات التي ينطق بها الصوت الحزين. كانت الكلمات غارقة في الحزن والألم تنعي الحبيب الذي غاب فجأة .. والحبيبة التي عاهدته على الانتظار مهما طال الغياب.

اكتسى وجه سامح بجمود وقسوة. وامتدت يده في حركة عنيفة فأغلق جهاز الكاسيت. نظر إليه ممدوح ببعض الدهشة والتساؤل.

قال سامح مقّطباً : ألا زلتم تسمعون تلك الأغاني البلهاء عن الحب والوفاء والاخلاص ؟.

ــ ظننت أن صوت المطربة سيعجبك.

ــ ولكن ما لم يعجبني هو كلمات الاغنية.

ــ يا عزيزي .. الدنيا لا تتوقف بسبب تجربة حب فاشلة.

قال سامح في تأكيد :

ــ لا شيء هناك اسمه حب. إسألني أنا. فقد جربت ما تسمونه الحب في الشرق، وفي الغرب أيضاً.

وبعد لحظة تساءل : من هي هذه المطربة التي كانت تغني في الشريط ؟

ــ إنها مطربة جديدة إسمها ياسمين . لها صوت رائع.

راقب سامح منزلاً مهدماً من آثار الرصاص فوق مشارف الجبل، وحوله بضع شجرات محترقة بقذيفة طائشة، وقال بحزن : الطبيعة لا تنبت إلا كل ما هو جميل .. ولكن الأفعال السيئة لا تأتي إلا من البشر .. الطبيعة تُنبت والانسان يقتلع ويقتل.

توقفت السيارة أمام منزل غارق في النوم فوق الجبل.

وقال ممدوح : سأتركك لتنام .. وسأعود إليك في المساء لنتدارس فيما تنويه من أعمال.

وبصوت يفيض بالود أضاف : توّقعت ألاَّ تعود إلا بحقيبة ملابس صغيرة .. ولذلك أعرتك بعض ملابسي ستناسبك وستجدها في دولاب حجرة النوم.

ضغط سامح على كتف صديقه شاكراً ووجهه يفيض بالشكر، فما أجمل من أن يكون للانسان صديق وفي مخلص، جمعتهما زمالة قديمة، وصداقة عُمر لم يُضعفها الاغتراب والترحال.

اتجه سامح إلى المنزل الخشبي الصغير .. وبعد أقل من خمس دقائق كان يغط في نوم عميق بملابسه الكاملة.

واستيقظ قرابة العصر وقد أحس بالجوع. وأدهشه أن وجد الثلاجة عامرة بالطعام، فأحس بقليل من الراحة.

وبعد أن تناول طعامه صنع قدحاً من القهوة وجلس يحتسيه على شرفة المنزل المطلة على سفح الجبل.

بدت له « بيروت » من ذلك الارتفاع جنة وارفة الظلال مكسوة بالجمال والحياة. وأشجار الصنوبر والأرز تستعد للشتاء القادم لتكتسي برداء من الثلج الناصع البياض كأنه ملاك رحمة يغسل الذنوب.

من أعلى تغيب التفاصيل دائماً، وتبدو النظرة فلسفية لا تكشف قناعاً حقيقياً. فهناك في الأسفل تعيش « بيروت » الحقيقية التي إقتاتت خبزها اليومي من طلقات الرصاص وانفجارات القنابل وهدير المدافع.

هناك بعض أبنائها الذين قست قلوبهم فصارت أكثر صلابة وقساوة من فوهات مدافعهم الرشاشة وطلقاتهم الصاروخية.

تنهد سامح .. فقد عاد إلى « بيروت » بخيرها وشرها

.. وعليه أن يتعايش معها بحلوها ومرها. وفي المساء أقبل ممدوح بتفاصيل كثيرة. وعرض على سامح استئجار شقة صغيرة في « الحمراء » لتكون بمثابة مكتب يمارس منه عمله، وأضاف : وفي الغد نقوم باستئجار هذه الشقة وتأسيسها وشراء سيارة خاصة لك.

تساءل سامح بدهشة : ولكن ألا يستغرق ذلك وقتاً من البحث ؟

أجابه ممدوح باسماً :

ــ لا تقلق .. كنت أعرف أن هذا ما تنويه ولذلك اعددت كل شيء .. وفي الغد أيضاً ستنشر جرائد الصباح إعلاناً عن طلب موظفين للمكتب.

ــ لا أدري كيف أكافئك يا صديقي.

ــ يكفيني بانك عدت إلى وطنك وأهلك .. وإلى ذكرياتنا معاً.

وفي الصباح تمَّ كل شيء على ما يرام. وأُعجب سامح بالمكتب الذي اقترحه ممدوح فاستأجره، وتم تأثيثه خلال النهار، وفي المساء كان يعقد المقابلات لطالبي الوظائف للعمل في مكتبه.

وفي اليوم التالي كان المكتب يبدأ عمله. وخلال أسبوع كان يقوم بتصدير أول شحنة من التفاح اللبناني إلى الخليج.

وبعد أسبوع كان سامح يقرأ الجرائد قبل ذهابه إلى مكتبه عندما فاجأته الصورة المنشورة في صفحة الاجتماعيات ..

كانت صورة مديحة. مديحة حبيبته السابقة. التي ارتحل عن « لبنان » بسببها. حدّق في الصورة وقد اندفعت الدماء إلى وجهه. وتمالك مشاعره ليقرأ الخبر الذي كان يدعو لحضور حفلة خاصة تقيمها مديحة في إحدى قاعات الفنادق الكبرى في « بيروت »، إحتفالاً بعيد زواجها الأول.

وكان بالصورة شخص آخر بجوار مديحة قالت الجريدة إنه زوجها ..

ولم يكن في الخمسين أو الستين من عمره، ولا يبدو في ملامحه أنه يكتنز ملايينه من أرواح الابرياء. كان شاباً وسيماً لا يزيد عمره عن الخامسة والعشرين وأصغر من مديحة بخمس أعوام كاملة، وتطل براءة طاغية من عينيه.

وأقبل ممدوح في نفس اللحظة .. وما أن شاهد الجريدة في يد صديقه حتى أدرك كل شيء.

وسأله سامح في صوت له برودة الثلج : هل تزوجت مديحة مرة أخرى ؟

قطّب ممدوح حاجبيه. بدا وكأنه يرغب في تغيير دفة الحديث ولكن سامح كرر سؤاله. فأجابه ممدوح مرغماً: لقد قُتل زوجها الأول في « نيويورك » برصاص مجهولين .. وقيل وقتها أنه قُتل بسبب بعض صفقات الأسلحة التي لم يوردها لأصحابها في « لبنان » .. ويُقال أيضاً ..

صمت ممدوح وسأله سامح : ماذا يُقال أيضاً ؟

أجاب ممدوح في صوت عميق :

ــ يقال أن مديحة لها يد في قتله.

تساءل سامح مذهولاً : هل أرادت قتله للتخلص منه ثم تتمتع بماله وحدها ؟

ــ لم يكن له وريث غيرها، وترك لها ثروة تقدّر بعشرات الملايين فصارت من نجوم المجتمع وسيدات الاعمال ونجمة لحفلات بيروت .. وقبل أن تمر أربعون يوماً على وفاته كانت قد تزوجت من هذا الشاب الذي كان يعمل لدى زوجها، ويُقال إنها غارقة في حبه.

ــ غارقة في حبه ؟

وانطلق سامح يضحك في عنف. وتوقف فجأة وهو يصلك أسنانه قائلاً : ترى هل هو نفس الحب الذي بادلتني إياه .. أم أنه من النوع الآخر .. كالحب الذي قتلت به زوجها ؟

ـــ إنها مجرد إشاعات وأقاويل.

مرت لحظة صمت وفكر سامح بقلب ينتفض إثارة .. ترى كيف تبدو مديحة سيدة الاعمال وصاحبة الملايين الآن ؟

كيف تبدو إبنة البقال وقد توجتها « بيروت » ماسة في تاج لياليها ومجتمعاتها ؟

وإذا كان البعض قد كوّن ثرواته في تلك البلاد من أنهار الدماء المسفوكة لبني جنسه، فلماذا يستبعد ما فعلته مديحة .. ولماذا يتشكك في أنها بريئة من دم زوجها ؟

وإلتمعت عينا سامح وهو يقول في إصرار : أريد أن أحضر حفلة الليلة .. للمباركة لمديحة على زواجها الثاني.

اعترض ممدوح في قلق : ولكن ..

قاطعه سامح في صوت حاسم : لا تحاول الاعتراض

يا صديقي .. سأحضر هذه الحفلة ولو اضطررت إلى اقتحامها .. فإنني أريد أن أرى مديحة وقد صارت من صاحبات الملايين .. وتحقق لها ما لم تحلم به .

* * *

« صفعة على الوجه »

عندما خطت مديحة إلى مكان الحفل دارت صوبها الرؤوس والابصار في لهفة وانبهار.

بدت كأميرة متوجة تضوي ماساتها لتخطف الأبصار، وعطرها الفواح يذيب القلوب. ملامحها الجميلة قاسية خالية من المشاعر، كطاووس لا يرى في العالم غير زهاء ألوانه.

راقبها سامح من مكانه دون أن تراه .. كان أول ما تعلق به بصره هو عيناها .. بدت له العينان أوسع عما كانت وأكثر سواداً.

بدت العينان كائناً غريباً عنه. فيهما نظرة طموحة قاتلة لا تعرف التردد. نظرة امرأة لا تعرقلها مشاعرها ولا تثنيها عما تريد.

وبدت مديحة في عين سامح مثل حشرة فرس النبي

التي تلتهم زوجها بعد ليلة زفافهما. فتقطع رأسه أولاً ثم تأكل بقية أجزاء جسده، وبعدها تبحث عن زوج آخر!

دخلت مديحة وقد تأبط ذراعها زوجها الثاني الشاب الجميل وكل شيء فيه ملتمع .. بدءاً من وجهه الغارق في العطور حتى حذائه الثمين. ويبدو مُغرياً بالتهامه، مثل دمية من الحلوى المزخرفة.

تعالت الأكف بالتصفيق لدخول مديحة وزوجها المكان. وتقدم الجالسون يبدون مباركتهم ويقبلون أطراف أصابع صاحبة الجمال والمال.

نهض سامح فتشبث به ممدوح متساءلاً : أين ستذهب ؟

أجابه بنظرة باردة : ألا يجب تقديم التهاني لصاحبة العصمة ؟

وتقدم سامح نحوها وهو يتساءل، كيف سيبدو رد فعلها لرؤيته بعد كل تلك السنوات ؟

ولكن أذهله أن عيني مديحة لم يختلجا، وبدت مسيطرة على مشاعرها لدرجة مذهلة، ولم تكشف ملامحها عن أي اضطراب لرؤيتها المفاجئة له.

وقالت له بصوت قوي : أرجو أن تسير أعمالك بصورة

طيبة في « بيروت » .. الاستيراد والتصدير هو التجارة السريعة للثراء.

أدهشه أنها تعرف نوع عمله. وقد بدت كسيدة مسيطرة لا يغيب عنها شيء وذات إرادة فولاذية. ولم يكن يبدو عليها أي ندم لرؤيته فجأة، كأنما لم يعيشا قصة حب خمس سنوات كاملة.

قال لها ساخراً : إن زوجك الثاني يبدو رائعاً.

أجابته دون غضب : انتظرت طويلاً حتى حصلت عليه، واشترطت أن تكون العصمة في يدي.

بسخرية أشد سألها : ترى هل تحبينه يا صاحبة العصمة ؟

أجابت في ثقة :

ـ يكفيني أنه لا ينظر لامرأة غيري.

تعمّد أن يجرحها وهو يسألها :

ـ وهو .. هل يمتنع عن النظر لأي امرأة أخرى بسبب حبه لك .. أم حبه لمالك ؟

لم تغضبها العبارة وأجابت بلهجة ساخرة يشوبها بعض الاحتقار : لماذا تُقحم الحب في كل شيء يا عزيزي ..

لم يعد الناس يحبون شيئاً هذه الايام غير المال، فلا تتحدث عن أشياء وهمية لا وجود لها إلا في عقللك.

ورفعت أصابعها التي تألقت بالخواتم الماسية تُنهي الحديث قائلة : تمتَّع بالحفل.

أصاب سامح غضب هائل وكبت مشاعره. ظن أنه سيسخر منها ويصيبها بالاضطراب لرؤيتها له بعد كل تلك السنين.

ظن أن عينيها قد تعكسان لحظة ندم. ولم يكن يعتقد أنها ستظهر قوية وساخرة إلى هذا الحد .. وأنها ستنتصر عليه مرة أخرى.

تقابلت عينا سامح بعيني زوج مديحة .. كانت عيناه تبدوان كعين من الزجاج خاليتين من الحياة.

عاد إلى مقعده وقد أربد وجهه وأبعد عينيه عنها ..

همس ممدوح يسأله : هل تغادر المكان ؟

تشبث في إصرار : لا .. سنبقى حتى النهاية.

ـــ لقد نسيتك هي .. لماذا لا تنساها ؟

أجابه في غضب : ومن قال أنني لم أنسها.

وغمغم في غضب أشد : لقد نسيت حبي لها .. ولكني

لم أنْسَ كراهيتي نحوها !

وبدأ الحفل وعزفت الموسيقى، ورقص البعض على موسيقى هادئة. وغنى بعض المطربين. وبقي سامح على تجهمه طوال المساء وقد شردت أفكاره في آفاق بعيدة.

ثم تنبه إلى الصوت الشجي الحزين التي غزا عقله فجأة.

كان صوت نفس المطربة الت سمعها من خلال شريط كاسيت سيارة ممدوح. وكانت تغني نفس الأغنية.

تطلع سامح نحو صاحبة الصوت في فضول. كانت ترتدي رداءً أسود يتناسب مع أغنيتها الحزينة، وقد خلا وجهها الصغير المستدير من أي زينة، وبدت عيناها السوداوان تفيضان بأحزان العالم كله برغم عمرها الذي لم يكن يزيد عن الثانية والعشرين. ولكن الحزن العميق الساكن في العينيين أوحى بعمر أكبر. أما رموشها الطويلة السوداء فبدت كأنها حراب مغروزة في حدقة العين. وشعرها الأسود الطويل المنسدل فوق كتفيها يتأرجح ببطء وألم، كجناحَيْ طائر جريح لا يقوى على الحركة الكاملة.

ومال سامح إلى صديقه يسأله : ما اسم هذه المطربة ؟

ـــ ياسمين.

ـــ أليس عجيباً لأنها لا تتحلى بأي مجوهرات ولا تضع أي مساحيق للتجميل ؟

ـــ إنها هكذا دائماً منذ ثلاث سنوات.

ـــ أليس لديها غير هذه الاغنية الحزينة البلهاء ؟

رمقه ممدوح في صمت ولم يرد .. وراقب سامح ياسمين حتى أنهت غنائها ثم غادرت المكان.

وحان وقت العشاء فقال سامح لصديقه : دعنا نذهب.

نهضا واتجها إلى باب القاعة. وألقى سامح نظرة أخيرة نحو مديحة فألهبت دماءه نظرة السخرية القاتلة المرتسمة في عينيها وفوق شفتيها.

همس ممدوح إليه في رجاء : إنسها يا صديقي .. إنسها .. واحمد الله أنك لم ترتبط بها .. فمن يدري ماذا كان يمكن لطموحها أن يفعل بك.

لفحهما الهواء البارد في الخارج فأحس سامح بانتعاش.

وابتسم لأول مرة ذلك المساء ابتسامة شاحبة وهو يفكر، كان ممدوح على حق وعليه أن ينساها وان يُفرغ ذاكرته منها. إنها لا تستحق مجرد الذكرى.

وفوجئا بياسمين واقفة في حيرة أمام سيارتها الفيات

ذات الموديل القديم التي أفرغ اطارها المتهالك من الهواء ..

ترامق ممدوح وسامح لحظة .. وقال سامح لصديقه متهكماً : دعني أمارس أسلوب الرجل المهذب الذي يبادر إلى مساعدة أي حسناء تحتاج للمساعدة. خاصة وأن البعض منهن يتحايلن بمثل هذا الاطار الفارغ من الهواء للتعرف على رجل جديد. وأنا في شوق الليلة لترديد كلمة أحبك جوفاء ألف مرة .. ما دمت سأقولها لحسناء رائعة الجمال.

واقترب من ياسمين قائلاً : هل يمكنني مساعدتك يا سيدتي ؟

أجابت في حيرة : لست أملك إطاراً إحتياطياً.

زادت ابتسامة سامح إتساعاً وهو يقول : إذن هل تسمحين لي بإيصالك إلى أي مكان تودين الذهاب إليه ؟

ظهر عليها الحيرة والتردد. ولكنه بادر الى فتح باب سيارته قائلاً : تفضلي.

تحركت ياسمين إلى السيارة في ارتباك .. والتفت سامح إلى ممدوح وهمس له : لن يمكنني توصيلك يا عزيزي، فابحث عن سيارة أخرى لانني أرغب في الوقوع في قصة حب هذه الليلة.

وغمز صديقه بعينه ثم أخذ مكانه فوق مقعد القيادة وأدار المحرك.

راقبه ممدوح في صمت .. كان يدرك الحالة النفسية السيئة التي يشعر بها سامح فلم يغضب من تصرفه، وانصرف سيراً على قدميه.

قاد سامح سيارته وهو يرسم ابتسامة واسعة على وجهه، ومال نحو ياسمين يسألها :

ــ أين تريدين قضاء بقية السهرة ؟

أجابت في وهن : سأذهب إلى بيتي.

ــ هذا أفضل .. أين تسكنين ؟

ــ في الروشة.

قاد السيارة إلى هناك. وطوال الطريق راقبها بطرف عينه. كانت ساكنة لا تتحرك وعيناها مصوبتان للأمام بتلك النظرة الحزينة التي تسكنهما.

سألها فجأة : إن رداءك الأسود رائع غير أنه بحاجة إلى بعض اللمسات الجمالية كبعض الحلى أو المجوهرات. ووجهك أيضاً. أعتقد أنه سيصير أكثر نضارةً وجمالاً ببعض لمسات الجمال فوقه.

اغرورقت عيناها بالدموع ولم ترد .. وأدهشه مسلكها وأصابته الحيرة فصمت طوال الطريق.

وأوقف السيارة أمام المنزل الذي أشارت إليه .. وهمست تقول له : شكراً لك.

قال وهويضع فوق شفتيه تلك الابتسامة الباريسية : ألن تدعينني إلى منزلك ؟

ما إن سمعت عبارته حتى اجتاح وجهها ذعر وهتفت : لماذا ؟

قال في بساطة : لنتناول بعض الحديث .. إنني من أشد المعجبين بصوتك الملائكي الرائع .. ودعي عنك هذا القناع الحزين فإنه لا يناسبك، ولا يناسب ما أريده منك من حب.

وغادر السيارة مقترباً منها .. ولكنها تراجعت إلى الوراء وشفتاها ترتعشان. فتقدم سامح نحوها بابتسامته الباريسية الواسعة الباردة وامسكها من كتفيها. حاولت هي التملص منه فزاد تشبثاً بها. صرخت في فزع وامتدت يدها في صفعة مدوية على وجهه ثم انطلقت هاربة إلى مدخل البناية الكبيرة واختفت داخلها.

وقف سامح لحظة في غضب شديد وهو يراقب مدخل العمارة التي ظهر حارسها ورمقه بنظرة متجهمة أقنعته بأن يعود إلى سيارته ويقودها مبتعداً عن المكان، وأصابع ياسمين لا تزال آثارها فوق خده.

* * *

« الحبيب الراحل »

قال سامح لممدوح في تجهم :

ــ أريد أن أعرف كل شيء عن هذه المطربة.

أجابه ممدوح ناصحاً :

ــ ابتعد عنها يا صديقي.

بعنف هتف :

ــ إن لم تخبرني فكثيرون على استعداد لأن يفعلوا ذلك مقابل المال بكل تأكيد.

تواجه الإثنان. وقال ممدوح في شك : على الأقل عليك أن تخبرني ماذا حدث بينكما ليلة أمس ؟

أدار سامح وجهه بعيداً وهو يقول بصوت شاحب : لا شيء .. أوصلتها لمنزلها ثم عدت إلى منزلي.

والتفت إلى صديقه قائلاً : إنني لا زلت مصراً أن أعرف كل شيء عنها.

أشعل ممدوح سيجارة أخذ منها نفساً عميقاً، وجلس على مقعد بجواره وقال : سأخبرك بكل ما يعرفه أي لبناني عن ياسمين .. فلو كنت تعيش وسطنا الأعوام الماضية لعرفت قصتها أنت أيضاً. ففي بداية احترافها للغناء كان عمرها سبعة عشر عاماً، أي منذ خمسة أعوام. وكان صوتها رائعاً محلقاً في سماء الانغام تشدو للحب والحياة والامل والجمال. ووقتها أُعلن عن اكتشاف مطربة جديدة تغني لكل شيء جميل .. ولكن بسبب ظروف الحرب فإن ياسمين لم تشتهر بالصورة التي تناسب جمال صوتها .. وظلت شهرتها مقصورة على بعض الاغاني العاطفية التي تذاع من الراديو.

ـ وبعد ذلك ؟

ـ بعد عام تعرفت ياسمين على شاب يدعى هاني شريف كان يمتلك شركة للاسطوانات. وكان إعجابه بصوت ياسمين إلى حدٍّ قرَّر فيه أن يقتصر نشاط الشركة على أغانيها فقط. وبالفعل فما أن صدر أول البوم أغاني

لها حتى حطم الأرقام القياسية في التوزيع برغم كل ظروف الحرب. وفي نفس الوقت بدأت مشاعر الحب تنمو في قلب هذا الشاب نحو ياسمين .. التي بادلته الحب أيضاً.

قال سامح في سخرية وقسوة : وكيف لا تحب مطربة ناشئة صاحب شركة للاسطوانات يحقق لها الشهرة والمجد والمال .. إنها صفقة رابحة ولا شك. فكم من الصفقات تعقد باسم الحب.

رمقه ممدوح في صمت، لحظة ثم أضاف : راح الحبيبان يستعدان لاتمام الزفاف. واستغرق تجهيز عش الزوجية وقتاً. وتناقلت كل المجلات الفنية والجرائد أخبار الحبيبين. ولكن وقبل موعد الزفاف بأربع وعشرين ساعة انفجرت قذيفة طائشة في مكتب هاني فأودت بحياته .. كان ذلك منذ ثلاثة سنوات.

تساءل سامح مقطّباً : وبعد ذلك .. ماذا حدث ؟

ــ كما ترى الآن .. ارتدت ياسمين الملابس السوداء وبكت حبيبها طويلاً .. وصارت موضع إشفاق كل لبناني لحبيبها الذي اختطفه القدر منها في لحظة غادرة.

قال سامح في قسوة : كنت أظنها ستتوقف عن الغناء حزناً على حبيبها.

ـــ هذا ما حدث بالفعل لمدة عام .. ولكن كل الاصوات طالبتها بأن تعود للغناء مرة أخرى وأن تغني للبنان من أجل السلام. وتغني أيضاً للحب الطيِّب في بلادنا. وبالفعل فقد عادت ياسمين للغناء ولكنها لم تُغَنِّ بعدها إلا من أجل لبنان. ومن أجل السلام وعودة كل الأحباء. ولحبيبها الراحل أيضاً.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه سامح وقال : أتدري بماذ تذكرني هذه القصة ؟

ـــ بمن ؟

ـــ بمديحة.

اعترض ممدوح في غضب : لا وجه للمقارنة على الاطلاق .. تلك إمرأة خائنة وهذه فتاة مخلصة.

ـــ لا تتسرع في إطلاق الأحكام يا صديقي .. وسأسألك سؤالاً أولاً .. ألم تحقق ياسمين شهرة أكبر بعد تلك الحادثة التي مات فيها حبيبها ؟

ـــ حدث هذا بالفعل فقد صار اسمها على كل لسان

.. وراح الناس يتهافتون على شراء أغانيها والاستماع إليها.

ـــ أرأيت. لهذا عادت ياسمين للغناء لكي تجني عطف الناس واشفاقهم، ومن أجل مزيد من الشهرة والمال. ولو كانت أحبت ذلك الشاب بصدق ما عادت للغناء. ولكن لأن رغبتها في الزواج منه كانت بدافع المصلحة، كذلك أيضاً كانت عودتها للغناء. أما تلك الصورة التي تحاول أن ترسمها لنفسها لتظهر بصورة الحبيبة الحزينة والمخلصة لذكرى حبيبها، فهي لإستمرار استدرار عطف الناس لها ولزيادة شهرتها .. فالمصلحة المادية هي التي تحكم مظهرها وليس الحب. وهو الشيء نفسه الذي فعلته مديحة التي تزوجت من أجل المالِ أيضاً. وهكذا تتشابه الاثنتان أيضاً. ومن يدري لعل ياسمين أيضاً كان لها يد في تلك القذيفة التي قتلت ذلك الشاب المسكين الذي أراد الزواج منها، لأنها رأت أن موته سيكون لزيادة شهرتها وليس العكس.

ارتعشت شفتا ممدوح في غضب مكبوت وغمغم قائلاً :

لم أكن أدري أن قلبك قد صار من حجر.

ـــ ومن منكم لم يتحول قلبه إلى حجر ؟ .. إنني لا أرى حولي غير أحجار تتحرك فوق قدمين.

ـــ هل فعلت مديحة كل ذلك بك ؟

ـــ ليست مديحة إلا نموذجاً صغيراً لأخريات. لقد صادفت أشكالاً من النساء من كل الاصناف والانواع، ولم أعثر لدى إحداهن على قلب ينبض أو يخلص ويحب حباً حقيقياً. هذه هي التجربة التي استخلصتها في حياتي. فقد مات الحب ودُفن الاخلاص والوفاء يا صديقي العزيز. وأنت تحدثني عن قصة وفاء بلهاء وعيناك تكادان أن تدمعا حزناً واشفاقاً على تلك الحبيبة المسكينة، التي تبيع كلمات الحب والوفاء الحزين للمستمعين لتحصد مالاً وشهرة.

ـــ المشكلة صارت في عينيك اللتين لا تبصران غير الخداع والزيف عند كل النساء.

ـــ لأنه لم تعد هناك إمرأة لها قلب يحب في هذا العالم.

قال ممدوح في صدق :

ـــ لو كانت كل النساء كاذبات في هذا العالم .. فلا أظن أن ياسمين واحدة منهن.

ـــ وإذا أثبتُّ لك ذلك ؟

ـــ كيف ؟

ـــ بأن تقع ياسمين في حب جديد.

ــ لست أفهم.

ظهر بريق خبيث في عيني سامح وهو يقول :

ــ إن من تخلص لذكرى حب قديم وتهب حياتها للذكري، لا يمكنها أن تخون تلك الذكرى وتقع في حب جديد .. أليس كذلك ؟

لم يرد ممدوح بشيء .. وواصل سامح : وسأثبت لك كذب مشاعر ياسمين لذكرى الحبيب الراحل، عندما تقع في حب جديد .. في حبي أنا.

قال ممدوح ساخراً : إنك تبدو واثقاً تماماً من أنها ستقع في حبك، كأنك ساحر يملك القلوب ومصائرها.

ضاقت عينا سامح وتراقصت فيها نوايا غامضة وهو يقول : وكيف لا تقع في حبي، وقد قررت إنشاء شركة اسطوانات لن يكون عملها غير إنتاج الاسطوانات التي تغنيها ياسمين فقط ؟

اتسعت عينا ممدوح في دهشة عميقة وقال : هل تنوي ذلك فعلاً ؟

قال سامح ساخراً : سيكون مجرد مشروع على الورق لاختبار حب ياسمين .. ولنرى ماذا ستفعل عندما أخبرها

بأنني وقعت في هواها وقررت تبنّي صوتها .. ولست أشك في أن التاريخ سيعيد نفسه، وستتناقل الجرائد أخبار حبنا وزواجنا الذي سأنسحب منه في الوقت المناسب.

تجهم وجه ممدوح وقال : دعها لأحزانها .. يكفيها ما هي فيه فلا تؤلمها بأحزان جديدة.

ـ ومن قال إنها حزينة .. أخبرتك برأيي في كل ما تفعله هذه الفتاة.

زاد وجه ممدوح تجهماً والتفت إلى صديقه مقطباً متسائلاً : ما الذي ستستفيده من كل هذه التمثيلية ؟

بسخرية أشد أجاب سامح : ألا تستحق تعرية وكشف حقيقة مشاعر البشر، أن نبذل من أجلها بعض الجهد ؟

* * *

« قرار بالاعتزال »

طرق سامح الباب ففتحته إمرأة في الستين بوجه ممتلئ ونظرة كسيرة في العينين.

قال لها : أريد مقابلة الآنسة ياسمين.

تساءلت المرأة : من أنت وماذا تريد منها ؟

أجابها في ثقة : إنني أدعى سامح العوضي .. وجئت إليها في عمل.

أشارت المرأة الى الداخل قائلة في اعتذار : تفضل .. معذرة فأننا نعيش وحدنا هنا، ولا يأتينا غرباء.

تساءل : هل أنت خادمتها ؟

ــ أنا أمها.

رمقها سامح في دهشة. وسقطت عيناه على ملابسها المتواضعة. ولاحظ أثاث الشقة البسيط الذي لا يتناسب مع كون صاحبتها مطربة مشهورة.

غمغم في اعتذار : أنا آسف .. لم أقصد.

زادت سحابات الحزن في عين الام. واتجهت إلى نهاية الصالة وطرقت بابها.

من الداخل كانت ياسمين راقدة في فراشها بعينين مفتوحتين عن آخرهما ..

وفوق العينين الواسعتين كانت آثار دموع لم تجف، بعد أن ظلت تنهمر طوال الليل، الذي لم يغمض لها جفن خلاله.

أيقظتها الطَرَقات من شرودها .. رنت ببصرها إلى الصورة المعلقة في ركن الحجرة لشاب وسيم يعلو صورته شريط أسود.

خطت الأم إلى داخل الحجرة قائلة : هناك شخص يريد رؤيتك بالخارج .. يقول إن اسمه سامح ويريدك بخصوص عمل.

قالت ياسمين في انكسار ومرارة : لا أريد رؤية أحد.

ـــ لا يصح أن أعتذر له بعد أن جلس ينتظرك.

وفي صوت ينضح بالمرارة تساءلت : ألن تكفّي عن هذا البكاء أبداً يا ابنتي ؟

مسحت ياسمين دمعة سقطت من عينيها بكف يدها، واتجهت خارجة من الحجرة.

فوجئت بسامح. تسمرت في مكانها وارتعشت شفتاها. غمغمت رغماً عنها مأخوذة في استنكار : أنت ؟

نهض قائلاً : جئت أعتذر عما بدر مني بالأمس.

أشاحت بوجهها بعيداً قائلة : لم يعد للاعتذار فائدة .. الجراح لا تزيل آلامها كلمة اعتذار.

تأملها سامح في تمعن. كانت تبدو مثل أرملة عاشت عمرها كله في الأحزان، ووجهها الصغير الحلو غارق في الاحزان يكسوه شحوب مريض يطفئ بهاءها ورونقها.

قال لها : لقد جئت أقدم إعتذاري .. وشيء آخر أيضاً.

رمقته في صمت، فأكمل وهو يشعر بالثقة : لا أنكر أنني أعجبت بصوتك إلى درجة كبيرة جداً .. وربما فاجأني صوتك لأنني كنت غائباً عن البلاد منذ سنوات وعدت منذ وقت قصير .. وحتى مساء الأمس لم أكن أعلم بقصتك.

وصمت ولم يكمل وقد وضح ما يريد قوله .. وعادت الدموع تتجمع في عين ياسمين فلم تبذل مجهوداً لكبتها ومنعها من الانهمار.

واصل سامح قائلاً دون أن تؤثر فيه دموعها : أقول أنني أعجبت بصوتك جداً، وحتى أثبت لك صحة هذا الإعجاب فقد قررت إنشاء شركة للاسطوانات .. وسوف تتبنى هذه الشركة صوتك وحدك وتطلقك في سماء النغم نجماً ساطعاً.

لم تنطق ياسمين .. وبدا عليها كأنها لم تسمع شيئاً ..

وواصل سامح وهو يراقبها : إنني صاحب ملايين واعتبر ان استثمار بعضها في تبنّي صوتك وإنشاء هذه الشركة هو عمل رابح .. وأنا أثق في أن ذلك سيزيد من شهرتك

قاطعته ياسمين بصوت مختلط بالدموع: لقد انتهى كل ذلك تماماً.

سألها دون أن يعي معنى كلماتها : ماذا تقصدين بذلك ؟

ـــ لن أغني مرة أخرى.

بدهشة سألها : ولماذا ؟

بمرارة أجابت : يكفيني ما حدث بالأمس.

بارتباك قال : لم أكن أقصد ما حدث .. وقد شرحت لك و ..

قاطعته قائلة كأنها تناجي نفسها : كان عليّ الاعتزال

منذ اللحظة الأولى التي فقدت فيها شريف .. كان يجب أن أعيش لذكراه فقط .. أن أعتزل الدنيا كلها وأقتات من بقايا ذكرياتنا معاً.

وبوجه امتلأ بالدموع رفعت عيناها إليه قائلة : أنا لست ألومك .. بالعكس .. إنني شاكرة للظروف التي أتاحت لقاءنا وما حدث منك، لترشدني إلى القرار الصائب.

بدهشة أكبر سألها سامح : هل تعنين ما تقولينه .. هل ستعتزلين الغناء حقا ؟

قالت باصرار : لقد اتخذت هذا القرار ولا رجعة فيه.

ـــ بسببي أنا ؟

لم ترد عليه .. ولكنها استدارت بعينيها نحو الصورة المعلقة في ركن الحائط والتي يحيطها شريط أسود. تنبه سامح إلى وجودها لأول مرة، ولم يكن في حاجة إلى جهد ليتبين أنها صورة الحبيب الراحل.

شعر سامح بتشويش في أفكاره. أحس أنه عاجز عن الإدراك الصحيح لما يحدث أمامه، فانسحب في هدوء وغادر المكان الغارق في الأحزان والذكرى.

واستمع ممدوح إلى ما حدث فاكتسى وجهه بتجهم

وغضب ولم ينطق .. وقال سامح ساخراً له :

ــ هل صدقت أنت أيضاً تلك الأكذوبة الجديدة بإعتزالها الغناء ؟

بقسوة سأله ممدوح : وهل حكمت بأنها أكذوبة هكذا سريعاً ؟

ــ بالطبع يا صديقي .. وما حدث من جهة نظري هو الآتي .. فلا بد أن مطربتنا العزيزة ياسمين قد شعرت بعد ثلاثة أعوام من وفاة الحبيب المزعوم، ببرودة التعاطف معها، وأن الناس قاربت أن تنسى هذا الحبيب الذي أوفت وأخلصت لذكراه. وأن الاقبال عليها يتناقص، لذلك فكرت في عمل شيء جيد لتحيي هذه الذكرى ليتعاطف معها الناس من جديد، وتعود للتألق ويتحدث الجميع عنها. وليس هناك أفضل من أن تعلن قرار اعتزالها الغناء .. وعلى الفور تتناقل الألسن ذلك ويتذكّر الجميع قصة الحبيبة المخلصة للذكرى. ويطالبها الجميع أن تعود للغناء مرة أخرى .. فتمتثل لهم بعد تمنّع .. فتتضاعف شهرتها بعد أن تصبح حديث المجتمعات والمجلات مرة أخرى.

غمغم ممدوح ذاهلاً : ـــ أي تفكير شيطاني يسيطر عليك ؟

أجابه سامح ساخراً :

ـــ لو كنت قد خبرت الحياة والنساء مثلي .. لأدركت صحة تفكيري.

ـــ كنت أظن أن دموعها وأحزانها ستقنعك بصدق مشاعرها.

ـــ كنت أعرف أنها مشاعر زائفة ولذلك لم أتأثر بدموع أو أحزان .. فليس أسهل على النساء من البكاء من أجل المال ..

ورفع إصبعه في وجه صديقه بابتسامة ثقة مضيفاً: وسأثبت لك صدق ما فكرت فيه وأن ذلك الاعتزال هو اعتزال وهمي ومجرد خطوة تكتيكية ذكية من إمرأة أرادت إعتصار ذكرى الحبيب الراحل حتى آخر قطرة، لمزيد من الشهرة والمال.

قال ممدوح ساخراً : وكيف ستثبت لي ذلك ؟

ـــ سأذهب إليها مرة أخرى.

ـــ لماذا .. لتخبرها إنها كانت على حق في قرارها بالاعتزال ؟

ـــ بالعكس .. بل لأخبرها إنه قرار خاطئ .. وهذا سيدفعها للتشبث بقرارها والاسراع في اعلانه وتنفيذه .. وبعدها تنكشف الحقيقة سريعاً، فإنها لن تبقي طويلاً بلا غناء حتى لا ينساها الناس.

تجهم وجه ممدوح وقال : وإذا كان قرارها بالاعتزال حقيقياً ؟

هز سامح كتفيه بلا مبالاة وأجاب : في هذه الحالة فلا بد أن لإعتزالها سبب آخر .. غير الوفاء لذكرى حبيبها.

غمغم ممدوح في حنق شديد قائلاً : في بعض الاحيان أقول لنفسي، بأنه كان من الأفضل عدم عودتك إلى « لبنان » مرة أخرى .. وإذا كان قرار ياسمين باعتزال الغناء حقيقياً وبسببك، فلن أسامحك أبداً يا صديقي.

وبصوت متألم أضاف : وكثيرون غيري لن يسامحوك أبداً !

* * *

« الذكرى الغالية »

في اليوم التالي أعلنت ياسمين اعتزالها الغناء. وحدثت الضجة التي توقعها سامح. فقد خرجت اقلام عديدة في الجرائد والمجلات تطالبها بالرجوع عن هذا القرار. ولكنها رفضت حتى مناقشة الأمر. وأغلقت بابها على نفسها ترفض مقابلة مندوبي المجلات الفنية ورجال الصحافة.

ووجد سامح أن الأمر بات مناسباً لتنفيذ بقية خطته. فاستقل سيارته متجهاً إلى بيت ياسمين .. ولكن والدتها فاجأته قائلة : إنها ترفض مقابلة أي إنسان.

فأجابها في ثقة : لقد جئت لاقناعها بالعودة للغناء .. وسأنشئ لأجلها شركة اسطوانات كبيرة. و ..

ولكن الأم قاطعته في حسم : لا تتعب نفسك .. كثيرون غيرك حاولوا نفس الشيء فرفضت حتى مقابلتهم.

أحس سامح بالغضب. وغادر المكان وهو يفكر في أن خطته باتت مهددة بالفشل. وتساءل في حيرة هل يُمكن أن يكون اخلاص ياسمين لحبيبها الراحل هو الذي دفعها لاعتزال الغناء حقيقة ؟

وهتف لنفسه ساخراً : بالطبع هناك أسباب أخرى وعليّ أن أكتشفها .. وأن أُقابل ياسمين مهما كان الثمن.

وبقي في سيارته على مقربة من بناية مسكنها يراقب الداخلين والخارجين. وتوقفت بجواره سيارة تحمل اعلاناً لإحدى شركات الكاسيت الشهيرة التي تتعامل معها ياسمين. وسمع سامح سائق السيارة يقول لشخص بجواره: لا تَنْسَ أن تجعلها توقع إيصال استلام حقوقها عن الألبوم الأخير بعد إعطائها النقود.

فأومأ الشخص الآخر برأسه وغادر السيارة يحمل حقيبة ممتلئة بالنقود. وتابعه سامح ببصره بنظرة ساخرة وهو يفكر في أن ياسمين لن تطيل في قرارها بالاعتزال لتضمن عدم انقطاع مثل تلك الحقائب العامرة بالمال.

وبعد دقائق عاد صاحب الحقيبة بدونها ومعه الايصال، وانطلقت سيارة الشركة مبتعدة. وبعد دقائق أخرى ظهرت

ياسمين تحمل نفس الحقيبة. فابتسم سامح لنفسه، فها هي الحبيبة الولوعة توشك للذهاب إلى البنك لتزيد حسابها المتضخم بفضل ذكرى إخلاصها !

انطلقت ياسمين بسيارتها. فقاد سامح سيارته خلفها على مسافة منها. وأدهشه أنها تجاوزت كل المصارف التي مرت بها دون أن تتوقف أمامها.

وبعد وقت توقفت سيارتها أمام بوابة مبنى كبير بأطراف « بيروت »، عُلقت عليه يافطة عريضة « ملجأ القلب الرحيم للأيتام ومشوهي الحرب ».

غابت ياسمين داخل المبنى بعض الوقت، واندهش سامح: ما الذي دفعها للذهاب إلى هذا المكان. ؟ ودفعه الفضول لأن يغادر سيارته ويقترب من سور المبنى.

فلمح في حديقته الخلفية مجموعة كبيرة من الاطفال يظهر على وجوههم الشحوب ويكسو الهزال أبدانهم. وبعضهم قد فقد ساقاً أو ذراعاً، وهناك عدد من المربيات يساعدنهم على السير أو تناول الطعام.

اقترب سامح مندهشاً من بوابة المبنى. وأوقفه الحارس الذي بادره سامح متسائلاً : لقد شاهدت المطربة ياسمين

تدخل هذا المكان منذ لحظات .. ما الذي جاءت تفعله هنا ؟

حدّق فيه الحارس بدهشة وسأله : ولماذا تسأل ؟

إرتبك سامح ثم تمالك نفسه بسرعة قائلاً : أنا صحفي.

وما كاد الحارس يسمع الكلمة حتى هتف في توسل إلى سامح : ما دمت صحفياً فأرجوك أن تقنع ياسمين بعدم إعتزال الغناء.

ومسح دمعة ترقرقت في عينيه وهو يشير نحو الاطفال الصغار قائلاً : لأجل هؤلاء الأيتام ومشوهي الحرب الصغار الذين فقدوا عائلاتهم في الحرب .. لأجلهم اقنعها ألّا تعتزل الغناء.

في دهشة سأله سامح : وما علاقة هؤلاء الأيتام باعتزال ياسمين الغناء ؟

أجاب الحارس : لولا ياسمين لأغلق هذا الملجأ أبوابه منذ فترة. فقد اعتادت أن تأتينا بكل ما تكسبه من عملها كمطربة دون نقصان، وتتبرع به من أجل هؤلاء الأيتام المساكين.

اتسعت عينا سامح دهشة وسأله : أحقاً ما تقول ؟

الحارس : إنها تفعل ذلك منذ قُتل حبيبها، وفاء لذكراه ورحمة وتصدقاً على روحه، ولا أحد يعرف ذلك غيرنا، ولولا أنني توّسمت فيك خيراً بأن تقنعها بالعودة إلى الغناء من أجل ألا يغلق هذا الملجأ أبوابه، لما اعترفت لك بحقيقة ما تفعله ياسمين.

أحس سامح برأسه تدور وأذهله ما سمعه. تذكّر على الفور تواضع مسكن ياسمين وسيارتها القديمة وإطاراتها المتهالكة. وعدم امتلاك ياسمين قطعة حلى واحدة. كان ذلك لأنها تتبرع بكل دخلها لهذا الملجأ وأطفاله ولا تستبقي لنفسها شيئاً. وهو بغبائه وعناده جعلها تقرر اعتزال الغناء فلا يصير لهؤلاء المساكين الصغار اليتامى راعٍ أو نصير.

عاد إلى سيارته وأخفى وجهه بيديه. بدت له الحقيقة مجردة من أي زيف. فقد قسا على تلك الانسانة النبيلة واوشك ان يحمّل هؤلاء الصغار الأيتام المساكين وزر هذه القساوة. فها هي انسانة مسكينة وحيدة تتبرع بكل ما تملك لأيتام صغار من أجل ذكرى حبيبها الراحل. وهو الذي يمتلك الملايين لم يفكر في أن يتبرع بليرة واحدة

لهؤلاء الصغار المجروحين .. وفاء لذكرى أي راحل كان عزيزاً عليه.

لم يكن هناك شك في إخلاص ياسمين لذكرى حبيبها.

لم يعد لديه شك في أنها كانت تحب هذا الشاب الراحل .. حباً مخلصاً حقيقياً .. وأنها لولا هذا الحب ما فكرت أن تتزوجه.

لم يكن زواج مصلحة مادية على الإطلاق.

وليست ياسمين مثل مديحة أو « جوليا ». وها هي تؤكد له بأنه لا يزال للحب وجود في هذا العالم القاسي .. لا يزال للوفاء والاخلاص بقاء وسط كل الماديات .. وها هي ياسمين الدليل المؤكد مع ذلك.

يَخْرُجُ من رحم زمن الحرب، الخراب والدمار والقلوب الحديدية .. وتخرج أيضاً قلوباً رحيمة عامرة بالحب والحنان والاخلاص.

مسح سامح دمعة من عينيه. لم يبكِ منذ سنوات بعيدة .. وظن أن قلبه صار أرضاً محروثة بالرمال والرماد لا تنبت مشاعر أو أحاسيس. ظن أن عينيه سحابات صيفية قاحلة .. لا تمطر أو تدمع. وظهرت ياسمين خارجة من

الملجأ .. إتجهت إلى سيارتها وأدارتها مبتعدة. وقاد سيارته خلفها بلا وعي دون أن يدري ماذا يفعل.

انطلقت سيارة ياسمين قليلاً ثم توقفت أمام بوابة عريضة تضم داخلها شواهد قبور وأجساد موتى.

كانت مقبرة عظيمة .. مقبرة لكل شهداء الحرب المجنونة.

تناولت ياسمين باقة ورد من مقعد سيارتها الخلفي واتجهت إلى المقبرة. وناولت حارستها العجوز ورقة نقدية كبيرة فرفعت العجوز يديها تدعو لها.

تابعها سامح إلى الداخل دون أن تراه. شاهدها تتجاوز صفاً لا نهاية له من شواهد القبور. ثم توقفت أخيراً أمام أحداها. إرتجفت باقة الزهور بين يديها. ثم شهقت بالبكاء.

وجثت على ركبتيها أمام شاهد القبر ووضعت الورود أمامه. ومدت يديها تتحسس القبر كأنها تناجي حبيباً. ثم انكفأت على وجهها أمامه. وبدت كأنها غابت عن وعيها.

لمح من مكانه اسم صاحب القبر محفوراً فوق شاهده. كان هو حبيبها الراحل.

وبدأ المطر يهطل فوق المكان. وبعد لحظات تحّول

إلى سيل. ولكن الفتاة الحزينة الجاثية فوق ركبتيها أمام شاهد القبر، بدت منفصلة عن العالم والمطر الذي أغرقها، كأنه دموع السماء تمسح خطايا البشر وتهوّن آلامهم.

لم يستطع سامح تحّمل المشهد الذي يراه أمامه أكثر من ذلك. فجرجر قدميه خارجاً من المكان مطعوناً في قلبه ومشاعره تدمي. وليس هنالك شيء في هذا العالم يمكن أن يخفف عنه.

* * *

« أحبها »

قال سامح وهو يتعذب : لا أستطيع أن أسامح نفسي يا صديقي .. لا أستطيع .. لا أستطيع.

ربت ممدوح فوق كتفه مهوناً وقال : أنا سعيد لأنك اكتشفت الحقيقة.

قال سامح متألماً :

ــ كم كنت قاسياً عليها في حكمي. ظننتها صورة أخرى عن مديحة. كنت أشعر بالهزيمة أمام هذه المرأة وأردت الانتقام .. ولم أجد غير ياسمين أمامي لأمارس عليها انتقامي بلا رحمة، باللعب على مشاعرها دون أن أدري أنها إنسانة مختلفة تماماً. وأنني قد جرحتها في أعز ما تملك، ذكرى حبيبها الغالية. ولكن صفعتها لي جعلتني أقرر الذهاب إلى آخر الشوط ولو كان الثمن هو الكذب

والخداع من جانبي ومهما كلفني ذلك من مال، حتى اكشف للناس كلها ما كنت أعتقد أنه زيف في مشاعر ياسمين وذكراها لحبيبها الراحل. وتصورت للحظة أن فضحي لها فيه كشف لكل الآخريات المخادعات مثل مديحة التي كانت هي السبب في كل ما جرى، وكراهيتي لها أطلقت لي العنان لكراهية كل النساء. إلى أن صدمتني الحقيقة، حقيقة ياسمين، وحقيقة نفسي.

ومسح دمعة ترقرقت في عينيه، فتساءل ممدوح ذاهلاً: هل تبكي ؟

أجاب في مرارة: ألست إنساناً .. هل ظننتني صرت مجرداً من المشاعر والأحاسيس .. إنني أتعذب .. أتعذب ولا أدري كيف أتخلص من عذابي وإحساسي بالإثم.

ــ كان عليك أن تذهب إليها وتصر على مقابلتها .. ثم تشرح لها كل شيء وتعتذر لها عن سوء ظنك .. وتترك لها حرية إتخاذ القرار بالعودة للغناء او عدمه.

إرتجف شامخ وهو يقول: لا .. لا أستطيع الذهاب إليها، لا أجرؤ على مواجهتها، لا أجرؤ على التطلع إلى عينيها الملائكتين. لا أجرؤ على المثول امام مرمى عينيها.

أحس أنني مذنب وخاطئ وهي إنسانة مجردة من الذنوب. نقيضان لا يُمكن أن يجتمعا أبداً، ولا أن يتواجها.

ورفع عينيه إلى صديقه في ألم قائلاً : إنني أفكر في مغادرة البلاد والسفر مرة أخرى.

ــ أتهرب ؟

ــ ليس هروباً ولكن ..

ــ في المرة الأولى هربت بسبب مديحة .. والآن ..

ــ المرة الأولى كنت مظلوماً مطعوناً في حبي .. وهذه المرة أنا الظالم وأنا الطاعن.

ــ ولكنك لا تحب على الأقل.

ــ من قال ذلك ؟

وحدق بعينين مذهولتين في الفراغ وجسده يرتعد. وتساءل ممدوح في دهشة : ماذا تقصد بذلك ؟

أجابه سامح بصوت مرتجف : أنا .. أحب.

ــ تحب .. من ؟

ــ ياسمين !

حدق فيه ممدوح ذاهلاً .. ظن أن سمعه قد خانه. ردد غير مصدق : ياسمين ؟.

واجهه سامح بوجه يفيض حناناً ورقة وقال : كيف لا أحبها وهي أعظم فتاة في العالم، وصاحبة قلب نبيل لا مثيل له. كيف لا أحبها وأنا أراها بهذا الإخلاص والوفاء لذكرى حبيب راحل لم يعد له وجود في هذا العالم، ولم يعد منه نفع أو فائدة.

ــ إنك لم تحبها. لقد آسرك اخلاصها وهذا ما كنت تبحث عنه .. الاخلاص والوفاء وعندما وجدتهما ظننت أنك تحب صاحبتهما.

ــ لا يا صديقي .. أنا أدرك ما أقوله .. أنا أحب ياسمين .. صدقني .. أحبها لذاتها وليس فقط لإخلاصها .. أحبها لأن قلبي صار يشتاق إليها كما تشتاق الوردة للندى. صارت روحي ظمأى إليها. أحس أن سفري وترحالي سنوات طويلة كان فترة آلالام التي تسبق المخاض والولادة. ولادة حبي لهذه الانسانة العظيمة. ولا تسألني لماذا أحببتها أو كيف. ففي حياتنا أشياء كثيرة نفعلها دون أن ندري السبب فيها. في حياتنا لحظات كثيرة يقررها القدر وليس إرادتنا. وحبي لياسمين لا حيلة لي فيه ولا إرادة. إنه حب قدري لست أملك نسيانه أو التخلص منه.

تمتم ممدوح في دهشة وحيرة : هذه مفاجأة .. لا أدري ما أقوله لك يا صديقي .. إنه حب يائس لا أمل فيه.

ـ قال سامح متألماً: أعرف ذلك تماماً وهو ما يعذبني .. ظللت طوال عمري أبحث عن قلب ترسو على شواطئه مشاعري وتنام في أحضانه أحلامي وأفراحي. وعندما وجدته لم يكن فيه مكان لي .. بل تشغله ذكرى إنسان آخر إرتحل عن هذه الدنيا.

ـ وماذا ستفعل الآن ؟

كطائر مذبوح أجاب سامح وهو ينتفض : لا أدري .. لا أدري.

مرت لحظة صمت. وقال ممدوح في إشفاق : إنني أرى أن أفضل ما تفعله هو أن تعود إلى عملك فهو ما سيشغلك عن هذه الآلام والافكار. كما أنك قد انشغلت عنه في الفترة الأخيرة وأخشى أن أقول إنه قد بات مهدداً بالتوقف والخسارة.

ومضت عينا سامح وقال : معك حق يا صديقي .. لم يعد لي غير العمل، والعمل الكثير، يجب أن أحصل على مال كثير، ليس لأجلي، بل لأجل ألا يتوقف الخير

الذي كانت تقوم به ياسمين .. وأوشكت بقسوة قلبي أن أوقفه.

تساءل ممدوح في دهشة : ماذا تقصد ؟

أجابه سامح دون أن يفصح : هذا سري، ولن أفشيه لمخلوق أبداً.

* * *

تساءلت مديرة الملجأ في دهشة : ما هذه النقود ؟

أجابها سامح : إنها مرسلة لاطفال الملجأ من ياسمين.

قالت المديرة في دهشة وهي تتفحص النقود بعينيها : ياسمين .. هل أرسلت كل هذا المبلغ الكبير ؟

وتأملت سامح في دهشة أعظم قائلة : ولكنها في المرة الأخيرة أخبرتنا أنها لن تأتينا بأي نقود أخرى لأنها اعتزلت الغناء ولم يعد لديها مصدر دخل آخر.

سامح : لا تشغلي نفسك بهذا الأمر .. سوف آتيك بمبلغ مماثل أول كل شهر حتى لا يتألم هؤلاء الصغار الأيتام بأكثر مما تألموا .. وأرجو أن تبتاعوا لهم ملابس جديدة للشتاء وأن يحصل كل طفل على ما يتمناه .. وإذا احتجتم مبالغ أكبر أخبروني في المرة القادمة.

ضاقت عينا المرأة في شك وقالت : نخبرك أنت .. أم ياسمين ؟

أجابها دون إرتباك :

ـ لا داع لأن تتصلوا بياسمين .. سآتي في الموعد المحدد وسأنفذ كل ما تطلبون.

قالت المرأة في اعتراف بالجميل : فليكثر الله من فاعلي الخير وأصحاب القلوب الرحيمة.

غادر سامح المكان. وأشرق قلبه عندما شاهد طفلاً. يلهو في الحديقة بلعبة جديدة، وضحكته تعلو لترسم المسرة في صفحة السماء الصافية.

شعر سامح بالبهجة .. وترقرقت في عينيه دموع سعادة. كان قلبه يهفو إلى الراحة .. ولكنه يبدو أملاً بعيداً ومحبوبته قد اغلقت شواطئ قلبها ورفعت مراسيها.

ولم يكن أمامه غير تلك الجزيرة الصغيرة يرتاح فوق شواطئها بعض الوقت فيخفف من هجير مشاعره .. ويرسم البهجة على وجوه سكانها، لعَلَّ ذلك يخفف بعضاً من آلامه وأشواقه.

كانت جزيرته الجديدة .. هي ذلك الملجأ الذي يسكنه الايتام المعذبين.

« أمر .. بالزواج ؟ »

وبقي سامح أياماً عديدة يجتر الآلام والأحزان. فليس هناك أقسى من آلام حب بلا أمل.

لا يمكن لهذه الآلام أن تقارن بآلامه يومَ أن خانت مديحة حبه لها وتزوجت بآخر. ففي تلك المرة كان يعتبر نفسه ضحية. وما يخفف عنه كان نظرات الإشفاق في عيون الآخرين.

ولكنه هذه المرة لا يجد من يخفف عنه .. بل ازدادت تعاسته بعدما سببه لمحبوبته من جراح وآلام زائدة.

وأغلق سامح مصاريع قلبه وانطوى على نفسه. صار أقل مرحاً وأكثر تقطيباً وصمتاً. تشرد عيناه ساعات طويلة تسبحان في بحور الخيال.

وكان يراها دائماً في أحلامه، مقبلة نحوه تمد أصابعها

الحنونة ترطّب روحه المشتعلة كالجمر. وكان يهتف باسمها فتجيبه بابتسامة ملائكية وتبتعد حتى تختفي عن عينيه. وهو كالمشلول لا يقدر على اللحاق بها أو متابعتها.

وأحيانا كانت تهاجمه صورة شريف المجللة بالشريط الأسود في ركنها، فيشعر بالحمى ويتقلب في فراشه مريضاً هزيلاً، وهو يشعر أنه يخوض معركة، منافسه فيها غير مرئي لا يستطيع مواجهته.

وغرق في عمله لينسى .. وفي وقت قصير عوّض كل ما سببه من خسارة بسبب اهماله السابق .. وفي أول الشهر التالي كانَ يحمل نفس المبلغ إلى الملجأ.

وحاول أن يتتبع أخبار ياسمين. ولكنها اعتزلت الحياة ورفضت مقابلة كل الناس.

وخلت الجرائد والمجلات الفنية من أي أخبار عنها أو أحاديث لها، غير ما تنشره الأقلام المندهشة من قرار اعتزالها المفاجئ.

وعذبه ذلك أكثر، وآلمه كنار متقدة، فزاد انطواؤه على نفسه وحزنه. وذات يوم بقي في مكتبه بعد انصراف

الموظفين في المساء، ولم تكن به رغبة لمغادرة المكتب إلى أي مكان آخر.

حتى صديقه ممدوح كان يتحاشى مقابلته حتى لا يتطرق حديثهما إليها .. أو إلى قصة حبه التي لا أمل لها.

وفوجئ بطرق على باب المكتب وقد تجاوزت الساعة العاشرة مساء ..

دهش وقَدَّر أن ممدوح هو الطارق برغم الوقت المتأخر .. وذهب ليفتح الباب. وفوجئ بها: بمديحة.

كانت واقفة في مدخل الباب: أنيقة، فواحة العطر، تتألق ماساتها وتلتمع عيناها .. وشفتاها ترسمان ابتسامة شرهة.

حدق فيها لحظة في دهشة عميقة وهو يسأل نفسه ما الذي اتى بها .. ولا كيف عرفت أنه لم يغادر مكتبه حتى تلك الساعة ؟

قالت مديحة كأنها تجيب عن أسئلته : رأيت سيارتك بأسفل فعرفت أنك لم تغادر مكتبك حتى الآن.

وبصوت ذي لهجة خاصة أضافت : ومعلوماتي عنك تقول بأنك خلال الأسابيع الأخيرة كثيراً ما تبقى في المكتب إلى وقت متأخر بعد انصراف الموظفين.

وتقدمت إلى داخل المكتب متسائلة : ألن تسمح لي بالدخول ؟

أجابها في قسوة : أعتقد أنك صرت لا تنتظرين إذناً من أحد لأي شيء ترغبين في عمله.

قالت مؤكدة: هذا صحيح.

وجلست ووضعت ساقاً على ساق، وقالت في دلال : ألن تدعوني لشرب شيء.

أجابها بجفاف : هذا مكتب عمل وليس مقهى.

ــ حسنا .. فلنذهب إلى مكان آخر.

ــ ليست بي رغبة للذهاب إلى أي مكان .. خاصة إذا كنت سأذهب في صحبتك أنت بالذات.

حدقت في عينيه بنظرة خبيثة وقالت : يخيّل لي أنك تغيرت كثيراً عن المرة الأخيرة التي تقابلنا فيها.

لم ينطق بشيء. وفاجأته قائلة : هل ياسمين هي السبب ؟

أصابه ذهول لما نطقت به، واستدار نحوها بعينين واسعتين وأنفاس لاهثة.

أذهلته معرفتها لهذا الأمر الذي أخفاه عن الناس كلها، فهل أخبرها ممدوح بذلك الأمر ؟

واعترضت أفكاره قائلة : لا تسئ الظن بصديقك .. لقد عرفت ذلك بوسائلي الخاصة.

أدهشته أكثر قدرتها على قراءة أفكاره .. إنها تبدو مختلفة تماماً عن إبنة البقال التي عرفها فيما مضى وأحبها. ولا بد أن الملايين قد حولتها إلى شيء آخر مختلف تماماً.

تماسك سامح كي لا يظهر أمامها بمظهر الضعيف وقال: أرى أنك تهتمين بأمري كثيراً ويهمك معرفة تفاصيل حياتي.

أجابته بابتسامتها الشرهة : أدركت أنك في محنة فجئت لمساعدتك.

واجهها بنظرة احتقار وسخرية قائلاً في استنكار : أنت .. تساعدينني ؟

واجهته بقسوة : لا تستهن بي .. يمكنني أن أحقق لك أي شيء تحلم به.

ساخراً قال : هل انتهيت من تحقيق أحلامك فصرت تسعين لتحقيق أحلام الآخرين ؟

لم تنطق في التو. نهضت. عبثت بحقيبتها دون هدف وعيناها تنبئان بمشاعر مضطربة.

راقبها سامح في صمت. استدارت نحوه وقالت له

بصوت مرتجف : انك لن تكون سعيداً مع ياسمين حتى لو استطعت اقناعها بحبك .. وحتى لو وافقت هي على الزواج منك ذات يوم فإنك لن تكون سعيداً معها أبداً .. بل ستعيش في تعاسة دائمة.

بخشونة سألها : وما ادراك بذلك ؟

بقسوة قالت : لا يمكن لرجل أن يعيش مع امرأة، وذكرى رجل آخر تعيش في قلب هذه المرأة.

طعنته عبارتها فارتجفت أطرافه. وزادت مديحة من اقترابها منه وهمست إليه في إغراء قائلة كحية تنفث سمومها : انسها .. انسها يا عزيزي.

راقبها سامح بدهشة دون أن يدرك غرضها. ابتعد عنها خطوة فلمح الغضب الذي تفجَّر في عينيها.

تمالك نفسه وهو يفكر في أنه لا يمكن أن يُهزم مرة أخرى أمام هذه المرأة. وسألها في سخرية : أين زوجك الجميل .. أخبروني انك لا تذهبين إلى أي مكان بدونه.

أجابت بنعومة : لقد تخلصت منه.

صرخ سامح في فزع بلا وعي : هل قتلته هو الآخر ؟

وتنبه إلى ما قاله رغما عنه، وصدمت العبارة اذني مديحة

فزاد لهاثها. ولكنها تمالكت نفسها بسرعة وتلك الابتسامة الباردة تأخذ طريقها إلى شفتيها مرة أخرى. وقالت وهي تشعل سيجارة : هل أخبروك أيضا عن تلك الاشاعة ؟

وحدقت في عينيه متسائلة : هل صدقتها ؟

بقسوة سألها متهرباً من سؤالها : لم تخبريني كيف تخلصت من زوجك الثاني.

ببساطة أجابته : أرسلته إلى السجن.

ــ هل سرق أموالك ؟

ــ لا .. بل ضبطته يغازل فتاة صغيرة جميلة فلفقت له تهمة ستتركه خلف القضبان سنوات طويلة.

وواجهته في تجهم .. وبدت لسامح امرأة حزينة مقتولة الأحلام .. لا تستطيع كل أموالها أن تحقق لها لحظة سعادة واحدة.

قال سامح في قسوة : لا أظن أنك جئت اليَّ تشكين همومك العاطفية

ــ لا .. بالطبع. أجابته في صوت ناعم. واقتربت منه أكثر وفي عينيها نظرة اغراء عميقة. وبلحظة خاطفة خيل لسامح أنه يرى مديحة إبنة البقال، الفتاة الجميلة الرقيقة

الحالمة التي كانت حبه الوحيد. ولكنه هز رأسه في اصرار. فلم تكن الواقفة أمامه غير ذئبة مخالبها ملطخة بالدم.

همست تسأله : ما رأيك فيّ ؟

أشاح بوجهه بعيداً عنها قائلاً : لا أظن أن رأيي فيك سيعجبك.

ــ أحيانا نفعل أشياء ضد آرائنا ومثالياتنا .. لأنها تحقق بعض مصالحنا.

ــ ماذا تقصدين ؟

ــ أنا مثلا .. تزوجت من « رشاد العسيلي » من أجل ماله .. برغم أنني لم أحبه لحظة واحدة .. ولكنني تزوجته بسبب ماله الكثير .. بالرغم من أن قلبي كان في مكان آخر.

ــ أين ؟

ــ عندك أنت !

همست بها وأنفاسها تلفح وجهه .. فأبعدها عنه في قسوة قائلاً : كفاك خداعاً .. ماذا ستستفيدين من هذه التمثيلية التي تقومين بها ؟

بدا أنها لم تسمع كلماته .. وواصلت بصوت مجروح : تزوجته رغماً عني فقد أدركت أن حبنا لبعضنا أنا وأنت

لن يحقق لنا أحلامنا أبداً .. تزوجته لأنني كرهت الفقر والإحتياج والتطلع إلى حياة الأثرياء .. وعندما صار لدي المال الكثير، فقد هذا المال بريقه وبهجته وادركت خطأي بزواجي من رجل ليست بي عاطفة نحوه .. غير الكراهية.

وتفجرت عواصف الغضب في عينيها، وهمست تقول : انهم يقولون بأنني قتلت رشاد .. ولكني لم أفعل .. صدقني .. فقط كنت أعرف أن هناك مؤامرة لقتله .. ولكني لم أحذره.

نظر إليها سامح مذهولاً .. ما الذي يدفعها إلى مثل هذا الاعتراف ؟

وواصلت مديحة : وبعد ذلك أردت أن أتمتع بكل هذا المال الذي تركه لي هذا الغبي .. فألقيت بنفسي في آتون مجتمع بيروت وسهراته .. أبدو كحسناء وحيدة ثرية يتهافت عليها الذئاب .. ولكني لم أختر غير شاب صغير جميل ظننت أنه سيمنحني السعادة والحب اللذَيْن كنت أبحث عنهما طوال حياتي.

ــ وكان أن دفع ثمن خطأه .. بدخول السجن.

ـــ لقد اشتريته بمالي .. والشيء المملوك لا يعارض ارادة مالكه.

ساخراً قال لها : لقد انتهى زمن العبيد.

قالت في تأكيد : لا يزال المال قادراً على شراء البشر .. دون ورقة بيع أو صك عبودية.

بقسوة قال لها: لا زلت لا أعرف لماذا جئت اليَّ في هذا الوقت المتأخر ؟

أغضبها سؤاله إلى درجة الجنون وبدت كنمرة مهتاجة. اندفعت نحوه وأمسكته من كتفيه، هزته في عنف وهي تصرخ فيه : أيها الأحمق الغبي .. ماذا تريد أن أقول أكثر مما قلت .. لماذا تعذبني أكثر مما تعذبت ؟

ـــ ردد في دهشة : أنا .. أعذبك ؟

صرخت فيه بصوت أعلى : كيف لم تقرأ في عينّي أنني لا أزال أحبك أيها الاعمى ؟

تراجع في ذهول .. غمغم مردداً : تحبينني .. أنت ؟

أجابت بصوت متهدج : طوال هذه السنين لم يسكن قلبي غيرك .. صدقني .. برغم كل ما يقولونه عني .. برغم هجراني لك ونكراني لحبك .. برغم كل شيء فلا

يمكنني أن أخفي تلك الحقيقة التي تعيش في قلبي .. انني أحبك أنت .. "أنت وحدك .. ولا تزال أحلام ابنة البقال لم تكتمل بعد .. ولن تكتمل إلا لحظة أن أرتبط بك إلى الأبد .. فأنت حبي الأول والأخير، حبي الحقيقي الذي حاولت خنقه وقتله من أجل المال والحياة السعيدة التي ظننته سيحققها لي، فاكتشفت أنني ما اشتريت غير السراب، وأن كل المال الذي أمتلكه لم يحقق لي لحظة سعادة واحدة مما اشتهيتها معك.

واجهها سامح في قسوة ووحشية : يا لك من امرأة مخادعة لا قلب لها .. الآن بعد أن صرت وحيدة بلا رجل جئت تنسجين شباكك حولي مرة أخرى .. وقلت في نفسك هذا الغر الساذج الذي احبني ذات يوم لا شك سيصير هو الزوج المناسب الذي سأضمن أنه لن ينظر لإمرأة أخرى. فأكبله بنقودي والعصمة التي في يدي. واذا ما أظهر أقل اعتراض فسيدفع الثمن في الحال .. حياته أو حريته.

صرخت في لوعة : لا .. ليست هذه هي الحقيقة .. أقسم لك.

دفعها في عنف صارخاً: لا أريد أن أسمع المزيد .. ولا أريد حتى أن أنظر إلى وجهك .. إنني أكرهك .. أكرهك .. بل وأحتقرك أيضاً .. ولا تظني أن أي رجل في هذا العالم يمكن أن يُحبك .. فأنت لم تعودي امرأة .. بل صرت وحشاً.

إنفجر الغضب في قلب مديحة فتحولت إلى كائن له ملامح مخيفة. وغمغمت في صوت وحشي مجروح: سوف تدفع ثمن هذه الإهانة .. أقسم لك بأنك ستدفع الثمن غالياً .. فلا يمكن لأحد أن يهنيني أو يجرح مشاعري دون أن يدفع الثمن.

وتحركت نحو الباب .. وقبل أن تغادره التفتت إليه هاتفة: كن حذراً منذ هذه اللحظة .. فأنت لا تدري من أين قد يأتيك الخطر .. برصاصة غادرة في الظلام أو طعنة خنجر .. أو ربما يتحول مكتبك إلى شُعلة نار وأنت بداخله.

وانطلقت تضحك في وحشية وهستيريا. ثم غادرت المكان وصدى ضحكاتها يتردد في أذني سامح.

وبقي مكانه وقد تصبب العرق غزيراً فوق جبهته.

لم يكن هناك شك في تهديد مديحة له. فقد دلت نظراتها على أن كلماته قد جرحتها في الصميم. وأنها لن تتوانى عن رد الاهانة. وأنه لن يكفيها أقل من حياته.

وذاهلاً سأل نفسه، هل كان اعترافها بحبه اعترافاً حقيقياً .. أم كذبة جديدة أرادت خداعه بها من أجل زواجها منه ؟

هل كان ما فعلته بزواجها من تاجر السلاح رغماً عنها .. هل كانت هي الأخرى ضحية ؟

ولم يكن باستطاعة إنسان في هذا العالم الإجابة على هذا السؤال .. فبقي في مكانه حتى الصباح ورأسه بين كفيه، وقد غرق في أفكار وهواجس عميقة.

* * *

« نهاية دامية »

وجاءت صحف الغد تحمل النبأ في آخر طبعاتها.

ماتت مديحة في حادث سيارة بعد أن انفجر إحدى اطاراتها وهي في طريق الجبل، فسقطت سيارتها من أعلى وتهشمت صاحبتها.

تصرف القدر على نحو سريع وبطريقة درامية مفجعة. وأحس سامح بدمعتين ساخنتين تسقطان فوق وجنتيه الملتهبتين وهو يقرأ الخبر.

أغمض عينيه وهو يشعر بحزن كبير. ماتت مديحة ضحية طموحها الذي دفع ثمنه في البداية زوجها الأول والثاني .. وها هي قد سددت الفاتورة كاملة بدورها للقدر .. حياتها.

ماتت مديحة دون أن تحصل على لحظة سعادة واحدة.

عاشت سنوات بين أحضان المال تغترف منه، دون أن يهبها المال لحظة أمان واحدة. مديحة التي هددته بالموت .. رقدت في اليوم التالي في صندوق مغلق محمول فوق الأكتاف. وبقي سامح طوال يومه في حجرته دون أن يغادرها، وليست به رغبة في مقابلة إنسان. كان حزيناً إلى درجة الاعتصار.

أحس في تلك اللحظة أنه فقد مديحة التي أحبها بصدق. مديحة ابنة البقال التي كانت ضحية مديحة الأخرى. صاحبة الطموح القاتل.

وفي اليوم التالي لم يستطع أن يمنع نفسه من الذهاب إلى قبرها .. في المقبرة الفخمة الخاصة.

وفوق القبر لم يشاهد باقة ورد واحدة. فإن الذين نافقوها وخشوا مالها وسطوتها طوال حياتها، ردوا إليها الدين مضاعفاً وضنوا عليها بوردة واحدة بعد أن آلمتهم في حياتهم بأشواك كثيرة.

وابتاع باقة ورد نثرها فوق القبر. ولم يستطع منع دموعه الحبيسة من الانهمار. أحس أن جزءاً منه قد مات في تلك اللحظة. فمديحة التي ترك وطنه بسببها ووصمها

بالخيانة والغدر قد تخلصت من ذنوبها وتطهرت بذلك الموت.

لم تعد تستحق غير طلب الرحمة .. والدموع.

وغادر المكان وهو يشعر بروحه كسيرة مهزومة. فالانسان أضعف كائن في هذا العالم. كائن لا يملك من أمر نفسه شيئاً. لا في ولادته أو موته.

وعندما عاد إلى منزله كان قد أحضر صورة لها. صورة قديمة عندما كانت لا تزال كائناً رقيقاً يتوثب بالسعادة والأمل.

ووضع الصورة داخل اطار زجاجي. ثم كسا حافتها بشريط أسود، وعلقها فوق جدار حجرة نومه. كأنما ليتذكرها دائماً.

وفوجئ في اليوم التالي بصورته منشورة في احدى الجرائد اليومية على مساحة كبيرة.

صورته وهو مُنْحَنٍ على قبر مديحة ينثر الورود فوق قبرها ويبكيها. وتحت الصورة مقال من الصحفي الوحيد الذي ذهب إلى المقبرة ليرى من سيذهب لالقاء نظرة الوداع على مديحة التي كرهها الكثيرون في دنيا المال،

ولم يحبها أحد، فكانت هذه الصورة للرجل الوحيد الذي ذهب إلى القبر وبكى فوقه .. وترك باقة ورد.

وكانت بقية المقال تخبر قصة الوفاء لرجل خدعته امرأة كان طموحها المال فقط، فداست على حبها وحبيبها ودفعته إلى السفر والترحال.

كانت قصته مع مديحة منشورة تحت الصورة.

وتعذب سامح أكثر. شعر أن سره قد افتضح. لم يكن يرغب في أن يرى نظرات الاشفاق في العيون مرة أخرى. وأن يلوك الجميع سيرته ويشفقون عليه.

شعر بغرابة القدر. فها هو قد تحول إلى صورة أخرى من ياسمين بكل التفاصيل. الحبيب الراحل والذكرى والوفاء. ونظرات الاشفاق في العيون المحيطة.

ولم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك. وعندما جاءه ممدوح في الليل لمواساته قال له: لقد قررت شيئاً .. فلم أعد أحتمل البقاء في مكان به حبيبة واريتُها التراب .. وحبيبة أخرى تعيش على ذكرى انسان راحل ولم تنتبه لوجودي في هذا العالم.

سأله ممدوح في قلق : وماذا قررت ؟

أجابه سامح بصوت معذب : سأرحل إلى « باريس » ثانية .. ولن أعود إلى « لبنان » أبداً.

وفشلت كل محاولات ممدوح في اقناع سامح بالتخلي عن فكرة السفر، ونشرت احدى الجرائد قصة الحبيب الذي يوشك أن يغادر وطنه مرة ثانية بعد أن فقد حبيبته.

واحسَّ سامح بغضب هائل وأدرك أن ممدوح هو من سرَّب الخبر إلى الجريدة للضغط عليه للبقاء في « لبنان ». ولكن ما حدث زاده عناداً فقام بتصفية أعماله ومكتبه. وباع سيارته وأعد حقيبة سفره.

وكان أمامه عمل أخير قبل أن يغادر البلاد.

كان اليوم هو أول الشهر ..

فاستقل تاكسياً إلى ملجأ الأيتام .. وهناك قابلته المديرة بنظرة توحي بالكثير. غير أنها لم تنطق بشيء. وقال لها سامح : لقد قررت مغادرة البلاد هذا المساء. ولكن هذا لن يغير شيئاً من أمر المبلغ الذي سيصلكم أول كل شهر كما وعدتكم من قبل، وقد جئت لاعطائكم بعض المال قبل سفري.

وترك حقيبة مكتظة بالنقود. ولم يتنبه لنظرات المديرة

المشفقة عليه، كأنها تعلم عنه سراً لا تملك البوح به.

إستقل سامح تاكسيا إلى مقبرة مديحة. وعلى الباب ابتاع باقة ورد كبيرة وضعها فوق القبر.

وجثا فوق شاهده وهو يمنع نفسه من البكاء. غير أن دموعه غلبته. ولم يستطع تحمل شجونه وأحزانه أكثر من ذلك فنهض ليغادر المكان.

وما كاد يستدير نحو باب المقبرة حتى لمحها واقفة تنظر إليه في اشفاق وصمت وحنو.

كانت هي: ياسمين.

* * *

« لحن الوفاء »

تسمّر سامح في مكانه وقد شلته المفاجأة، وتوقف عقله عن التفكير وهو لا يدري ما الذي اتى بياسمين إلى هذا المكان .. ولا السبب في ذلك.

ومسحت هي دمعة ترقرقت في عينيها، وتقدمت نحوه في ضعف قائلة : جئت أقدم عزائي لك.

همس يقول لها : شكراً لك.

قالت : قرأت قصتكما في الجرائد .. فأنارت بصيرتي وأدركت سر ذلك التصرف الذي بدر منك ليلة أن أوصلتني بسيارتك لمنزلي.

قالت في رقة : أعرف أن حالتك النفسية السيئة هي التي دفعتك إلى ذلك .. وأعرف أيضاً أنك إنسان صاحب قلب نبيل.

تطلع إليها مندهشاً. وقالت ياسمين في صوت هامس : أي انسان آخر مكانك، كان سيتشفى بوفاة من خانته وهجرت حبه .. ولكنك جئت تجثو فوق قبرها وتنثر الورود والدموع.

قالت بوهن : لا يمكن للانسان أن يقسو على ذكرى حب مضى، مهما كانت نهايته...

اني أدرك مشاعرك .. لأنني أعيشها كل لحظة.

مرت لحظة صمت. وبدا كأن الاحزان قد وحدت روحيهما تلك اللحظة. وأن القدر يوشك أن يضع بريشته اللمسة الأخيرة في صفحة حياتهما.

سألها برقة : كيف عرفت أنني قادم إلى المقبرة ؟

أشرق وجهها الحلو وقالت : لقد كنت اتابعك منذ خرجت من الملجأ.

شحب وجهه ولم يقدر على النطق. بدا أن سره قد انكشف. وقالت ياسمين : منذ فترة انقطعت عن الذهاب إلى الملجأ لأنني لم أكن أملك ما أمنحه لهؤلاء الصغار اليتامى المساكين .. ثم أحسست بالذنب والألم خاصة وأن وفائي لذكرى حبيبي الراحل يمنعني من العودة للغناء.

فبعت سيارتي وذهبت بثمنها إلى الملجأ. وهناك أخبرتني المديرة بأمر ذلك الشاب الذي يأتيهم بمبلغ كبير أول كل شهر مدعياً إنني من أرسله. واندهشت بشدة وقررت اكتشاف الحقيقة. ولأن اليوم هو أول الشهر فقد انتظرت داخل سيارة أجرة بعيداً عن الملجأ اراقب الداخلين والخارجين، إلى أن أشار حارس الملجأ عليك دون أن تلحظه. فتتبعت سيارتك إلى هنا وقد أدركت كل شيء.

غمغم سامح في حزن وألم : لم أستطع أن أسامح نفسي لأنني تسببت في أن يتوقف عطاؤك السخي لهؤلاء الأيتام الصغار، فعوّلت على نفسي أن أساهم بأكثر مما كنت تساهمين به لأطفال الملجأ. وأردت أن يظل الجميع يدعون لك ولذلك قلت أن المال مالك.

قالت بوجه مشرق: ألم أقل لك إنك صاحب قلب نبيل.

ــ كان هذا واجبي .. وكان عليّ أن أفعل ذلك.

ــ كثيرون تناسوا واجباتهم .. بل تناسوا آباءهم وأمهاتهم وأولادهم .. وتوقفوا داخل ذاتهم الأنانية فصارت عيونهم لا تبصر غير وجوههم.

مرت لحظة صمت. ورفرف عصفور صغير ملون في

الفضاء وحط فوق شاهد القبر، والتقط بمنقاره ورقة ورد حمراء وحلّق بها في الفضاء سعيداً.

ابتسمت ياسمين. لأول مرة يراها سامح تبتسم. بدا وجهها رائعاً مضيئاً بتلك الابتسامة الساحرة. تشجع وقال لها : لي عندك رجاء.

بصوت عذب سألته : ما هو ؟

أجابها : أن تعودي إلى الغناء .. كثيرون بحاجة إلى صوتك يتغلبون به على أحزانهم وأوجاعهم ويتلمسون به السلوى والعزاء في محنتهم.

قالت باسمة : سأعود.

هتف في سعادة غير مصدق : أحقا ؟

قالت : ما رأيته من اخلاصك ووفائك منحني الثقة في العالم كله .. لأجل ذلك قررت أن أعود إلى هذا العالم وألا افقد فيه الأمل أبداً .. سأغني للجميع لحن الوفاء والحب.

تهدَّج صوته وهو يقول : انك لا تتخيلين مقدار سعادتي بما قلته الآن، بهذا أستطيع أن أرتحل دون أن يعذبني ندم أو ألم.

قالت في ضعف وشحوب مفاجئ : أحقا سترتحل ؟

ـــ الليلة.

ـــ ولماذا ؟

فاجأه سؤالها. باغته. بماذا يجيب. وهل لا تزال أسباب الارتحال قائمة ؟ أحس بقلبه يعتصر. فكر لحظة. هل يعترف لها بحبه. ولكن هل يتسع قلبها لهذا الحب الجديد. وتذكر عبارة مديحة التي أرادت أن تتشفى به : لا يمكن لرجل أن يعيش مع امرأة، وذكرى رجل آخر تعيش في قلب هذه المرأة.

نكس رأسه وقال بحزن : لم يعد هناك سبب يدفعني للبقاء في « لبنان ».

قالت في أمل : ألم يعد لك فيها أصدقاء .. أو أحباء ؟

وواجهته. ارتبك. لم يدرِ ماذا تقصد. ولم يجد كلمة على لسانه يرد بها عليها.

كيف يعترف لها ؟

ارتجفت عيناها في مقلتيها. بدت موشكة على الاعتراف بسر. واخيراً قالت تغالب ترددها : لقد جاءني ممدوح صديقك أمس.

ردد في دهشة : ممدوح ؟

واصلت : لقد اخبرني بكل شيء.

ونكست بصرها للارض وهي تضيف : أعرف أنك تحبني .. وأنك ستغادر « لبنان » إلى الأبد، ليأسك من هذا الحب.

شحب وجهه بشدة وأحس بضعف وألم. لماذا يقسو عليه ممدوح إلى هذا الحد ؟

قالت في اشفاق : لقد أراد صديقك أن آتي إليك لاقنعك بالبقاء في « لبنان » .. ولكنني لم أمنحه اجابة .. كنت أشعر أني غريبة عنك وأن حبك لي لا يمنحك الحق في أن تسكن قلبي. ولم أكن أدري أنك نفس الشخص الذي يمنح المال للملجأ باسمي إلى أن اكتشفت ذلك هذا الصباح، فتغيرت الأمور بالنسبة لي.

لم ينطق سامح. كان يستمع فقط بوجه يحاكي وجوه الموتى.

واصلت ياسمين : وعندما رأيتك في الملجأ .. ثم تابعتك إلى هذا المكان أحسست بشيء ما ينمو في قلبي تجاهك خلال هذه اللحظات القليلة.

نظر إليها ذاهلاً غير مصدق. وقالت ياسمين وعيناها شاردتان : لا يمكن أن أقول إنه الحب. أنا لا أدري حتى الآن ما هذا الشعور. غير أن ما أثق فيه كل الثقة، هو أنني خلال هذه اللحظات القليلة أحسست بأنني لم أعد استطيع الابتعاد عنك طرفة عين.

دق قلبه بعنف. لا يكاد يصدق اذنيه، وواصلت ياسمين تقول : أشياء كثيرة اتت تجمعنا .. ولذلك أطلب منك أن تبقى.

وأكملت في صوت هامس : لأجلي.

اندفع نحوها. أمسك أصابعها لاهثاً. أشرق وجهه بسعادة طاغية وهو يقول : اتعنين ما قلته ؟

كررت في رجاء أقرب إلى التوسل : لا ترحل.

سألها في قلق : وهو ؟

أجابت وعيناها تشردان في الأفق البعيد : ستظل ذكراه في قلبي إلى الأبد. ذكرى عزيز راحل.. ولكن القلب الحي بحاجة إلى قلب آخر حي يدق بجواره حتى تسير الحياة.

هتف في انتشاء : وأنا سأعوضك عن كل أيام الحرمان والعذاب والآلام. ستكون حياتنا لحظات سعادة متصلة ..

وأنا واثق انك يوما ما ستبادلينني نفس مشاعر الحب الملتهب في قلبي. أما اعزاؤنا الراحلون فسنذكرهم بالخير دائماً. وسنأتي دائماً لنضع الورود فوق مثواهم وندعو لهم بالرحمة والخير، ولن ننساهم أبداً.

قالت ودموعها تسيل : لست أريد منك أكثر من ذلك .. وسأُخلص لك إلى الأبد.

أجابها في صدق طاغ : وأنا سأحبك إلى الأبد.

وتشابكت أصابعهما في قوة ولهفة .. مثل مرساة اشتبكت في مرفأ الأمان.

وعاد العصفور الملون يحلق فوق رأسهما. وأسقط ورقة الورد الحمراء، فتهادت حتى سقطت بين أكفهما المتشابكة. وشرعا يغادران المقبرة. ليشاركا الأحياء عالمهم الرحب.

* * *

الفهرس

لحن الوفاء

غادر سامح بلاده هارباً من قصة حب فاشلة وخيانة من الحبيبة... وفي « باريس » صدمه الغرب مرة أخرى في مشاعره...

وعاد سامح إلى « لبنان » بعد سنوات قليلة بقلب مطعون لا يؤمن بالحب والوفاء.. فوضعه القدر في طريق « ياسمين » الشابة الجميلة المفجوعة في حبها...

ومن اللحظة الأولى كان الصدام والنفور... فكيف كانت النهاية ؟

دار الجيل
بيروت